

تاليف

شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن عبد الحليم ابن تيمية

(٦٦١ — ٧٢٨هـ = ١٢٦٣ — ١٣٢٨م)

صححه وعلق عليه وقدم له

الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد

الدار السلفية

بومباي . الهند

الطبعة الاولى

١٤٠٧هـ١٩٨٧م

الــدارالسلفيــة

٦/٨ اى ـ حضرت تيرس انيكس

شــارع شيخ حفيظ الــدين

بومباى ــ ٠٠٨ ٤٠٠ الهنــد

هاتف : ٣٧٧٧٥٥ ـ ٣٩٦٧٤٧ ـ ٨٩٥٧١٠

تلكس : ٧٦٨٣٢ ـ ١١ . سلفان

برقيا : «السلفية»

AL – DARUSSALAFIAH

6/8 – A, HAZRAT TERRACE ANNEXE,
SHAIKH HAFIZUDDIN ROAD,
BYCULLA BRIDGE, BOMBAY – 400 008
TELEX: 011 76832 SALFIN
GRAM: «ALSALAFIAH»

انعام الباری

فی شرح

حدیث ابی ذرّ الغفاری

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى المبعوث بجوامع الحكم ورحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

مانقدمه اليوم هو دُرّة نفيسة من تأليف شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبدالحليم ــ ابن تيمية رحمه الله تعالى . وهو يتضمن شرح أحسن الأحاديث القدسية وأجمعها وأكملها . وهو حديث أبى ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى . وهذا الحديث ــ كما أشار اليه شيخ الإسلام ــ يحتوى على قواعد الدين العظيمة فى العلوم والأعمال ، والأصول والفروع . فهو يتضمن جُلّ مسائل الصفات والقدر والعمود الأساسى للعقيدة الصحيحة وهو ان كل مانهى الله عنه راجع الى الظلم وكل ماأمر الله به راجع الى العدل . والعدل والقسط هو مايقوم به صلاح العباد والبلاد ولإقامته أرسل الله الرسل وأنزل الكتب . وأعظم العدل هو التوحيد وضده ــ الشرك ــ أعظم الظلم . وهذا الحديث الجليل القدر يقوم بدعوة الناس الى الإبتعاد عن الظلم من أى نوع كان ، والإتصاف بالصفات المؤدية الى العدل .

ثم ان هذا الحديث يوضح عظمة قدرة الله تعالى وسعة رحمته ، وتفرده بالملك والتدبير ، وغنائه عن الخلق وافتقارهم اليه ، وينتهى بالإعلان بأن الله تبارك وتعالى لايظلم الناس شيئا بل يجازى كل محسن بحسناته فضلا منه واحسانا دون إيجاب أو إجبار ، ويعاقب المسيئ على سيئاته عدلا منه .

كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ ﴾

أو كما جاء فى هذا الحديث :

« فمَن وجَدَ خيرًا فليَحمدِ الله عزَّ وجلَّ ، ومَن وَجَد غيرَ ذلك فلايَلُومَنَّ إلا نفسَه »

ونحن إذ نقدم هذه الرسالة القيمة الى القراء نود أن نذكرهم بأننا سوف نستمر ــ كما أعلنا من قبل ــ فى نشر رسائل شيخ الإسلام فى صورة مناسبة لها مع التعليقات المفيدة .

وندعو الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لنشر كلام الشيخ وينفع به عامة المسلمين وخاصتهم ويجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ويتقبله منا ، انه سميع قريب .

٢٠/ذوالقعدة ١٤٠٧هـ
الموافق
١٦/يوليو ١٩٨٧م

مختار أحمد الندوى
رئيس مجلس الادارة
الدارالسلفية ــ بومباى

تقـديم

هذه الرسالـة النـافعـة ، العظيـمـة القـدر التى نقـدمهـا الى المكتبـة الإسـلاميـة عبـارة عن شرح وتـوضيـح للمعـانى الرفيعـة ، والنكات البليغـة ، والـدروس السـاميـة والعظـات البـالغـة التى يحتـوى عليهـا حديث أبىذر القدسى ، الـذى يرويـه رسول الله ﷺ عن الله تبـارك وتعـالى ، ويعتبر من أجمـع الأحـاديث القـدسيـة وأكملهـا . وكان أبـوادريس الخـولانى ـ أحـد رُواتـه من التـابعين الـذين رووا هـذا الحـديث عن أبىذر ـ كان اذا حـدث بـه جثـا على ركبتيـه إعظـامـا وتقديرا له . وكان أحمد بن حنبل يقول : ليس لأهل الشـام حـديث أشرف من هذا الحديث .

فهو كلام رب العالمين ، بلّغـه عنـه الروح الأمين الى أفضل الخلق رحمـةٍ للعـالمين ، رواه عنـه امـام الزاهـدين وقـدوة الصـادقين ، أبوذر الغفـارى رضى الله عنـه . ثم قـدر الله أحكمُ الحـاكمين أن يتـولى كشف أسراره ورموزه ، وابراز معانيه ولطائفه ، وتوضيح دقائقه وإشاراته ، امام المتقين ، وقدوة المصلحين ، وزعيم المجاهـدين فى سبيل نشر السنـة وقمع البـدعـة شيخ الإسـلام تقى الـدين أحمـد بن عبـدالحليم بن تيميـة الحرانى رحمه الله تعالى .

والحديث رواه مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنـده والترمـذى وابن ماجة وغيرهم . وفيما يلى نصّ الحديث وطرقه المختلفة .

قال الامام مسلم فی صحیحه[1] : حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن بهرام الدارمی ، حدثنا مروان(یعنی ابن محمد الدمشقی) ، حدثنا سعید ابن عبدالعزیز ، عن ربیعة بن یزید ، عن أبی‌ادریس الخولانی ، عن أبی‌ذرّ رضی الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، فیما روی عن الله تبارك وتعالی انه قال :

١ ــ یَاعِبَادِی ! إِنِّی حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَی نَفْسِی ، وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا بَیْنَكُمْ ، فَلاَتَظَالَمُوْا ؛

٢ ــ یَاعِبَادِی ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَیْتُهُ ، فَاسْتَهْدُوْنِی أَهْدِكُمْ ،

٣ ــ یَاعِبَادِی ! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُوْنِی أُطْعِمْكُمْ ؛

٤ ــ یَاعِبَادِی ! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُوْنِی أُكْسِكُمْ ؛

٥ ــ یَاعِبَادِی ! إِنَّكُمْ تُخْطِئُوْنَ بِاللَّیْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِیْعًا ، فَاسْتَغْفِرُوْنِی أَغْفِرْ لَكُمْ ؛

٦ ــ یَاعِبَادِی ! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوْا ضُرِّیْ فَتَضُرُّوْنِی ، وَلَنْ تَبْلُغُوْا نَفْعِی فَتَنْفَعُوْنِی ؛

٧ ــ یَاعِبَادِی ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَی أَتْقَی قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِّنْكُمْ مَازَادَ ذلِكَ فِی مُلْكِی شَیْئًا ؛

٨ ــ یَاعِبَادِی ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَی أَفْجِرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِّنْكُمْ مَانَقَصَ ذلِكَ مِنْ مُّلْكِی شَیْئًا ؛

---

(١) كتاب البر والصلة(٣/١٩٩٤ـ١٩٩٥رقم٥٥) .

٩ ــ يَاعِبَادِى ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فى صَعِيْدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوْنِى ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِّنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَانَقَصَ ذلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ؛

١٠ ــ يَاعِبَادِى ! إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيْهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيْكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فَلاَيَلُوْمَنَّ إِلاَّ نَفْسَه .

قال مسلم : حدثنيه أبوبكر بن اسحاق ، حدثنا أبومسهر ، حدثنا سعيد بن عبدالعزيز ، بهذا الإسناد غير ان مروان أتمُّهما حديثا .

وقال أبواسحاق[٢]: حدثنا بهذا الحديث الحسن والحسين ابنا بشر ، ومحمد بن يحي قالوا : حدثنا أبومسهر فذكروا الحديث بطوله .

وأخرجه البخارى فى «الأدب المفرد»(ص١٢٩رقم٤٩٠) عن أبىمسهر .

ثم ساق مسلم طريقا أخرى للحديث فقال :

حدثنا اسحاق بن ابراهيم ومحمد بن المثنى كلاهما عن عبدالصمد بن عبدالوارث ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن

(٢) أبواسحاق هو ابراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه راوى صحيح مسلم ، ذكر لى الحديث طريقا أخرى غير طريق مسلم .
وأخرجه البيهقى فى «شعبالإيمان»(الباب السابع والأربعون) والنووى فى «الأذكار»(ص٣٦٨) والذهبى فى «سير أعلام النبلاء»(٤٧/٢ـ٤٨) بأسانيدهم عن أبىمسهر ــ فقالوا عن رسول الله ﷺ ، عن جبريل ، عن الله تبارك وتعالى انه قال ..... » .

أبي قلابة ، عن أبي أسماء ، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى :

« انى حَرَّمتُ على نَفسى الظلم وعلى عبادى فلا تظالموا »

وساق الحديث بنحوه .

وحديث أبي ادريس الذى ذكرناه أتمّ من هذا .

وساق أحمد[٣] لفظ حديث أبي أسماء بروايته ، عن عبدالرحمن وعبدالصمد كلاهما عن همام :

« إِنِّى حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسى الظُّلْمَ وعَلَى عِبَادِى ، أَلاَ فَلاَتَظَالَمُوْا ، كُلُّ بَنِى آدَمَ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرُ لَه ولاأُبَالِى،

وقال : **يَابَنِى آدَمَ ! كُلُّكُمْ كَانَ ضَالاً إلاَّ مَنْ هَدَيْتُ ،**

وَكُلُّكُمْ كَانَ عَارِيًا إلاَّ مَنْ كَسَوْتُ ،

وَكُلُّكُمْ كَانَ جَائِعًا إلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُ ،

وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآنًا إلاَّ مَنْ سَقَيْتُ :

فَاسْتَهْدُوْنِى أُهْدِكُمْ ،

وَاسْتَكْسُوْنِى أُكْسِكُمْ ،

وَاسْتَطْعِمُوْنِى أُطْعِمْكُمْ ،

وَاسْتَسْقُوْنِى أُسْقِكُمْ .

---

(٣) راجع «المسند»(١٦٠/٥) .

« يَاعِبَادِى ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ وَإِنْسَكُمْ ، وَصَغِيْرَكُمْ وَكَبِيْرَكُمْ ، وَذَكَرَكُمْ وَأُنْثَاكُمْ عَلَى قَلْبِ أَتْقَاكُمْ رَجُلاً وَاحِدًا لَمْ تَزِيْدُوْا فِى مُلْكِى شَيْئًا ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ وَإِنْسَكُمْ ، وَصَغِيْرَكُمْ وَكَبِيْرَكُمْ ، وَذَكَرَكُمْ وَأُنْثَاكُمْ عَلَى قَلْبِ أَكْفَرِكُمْ رَجُلاً لَمْ تَنْقُصُوْا مِنْ مُلْكِى شَيْئًا إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ رَأْسُ الْمِخْيَطِ مِنَ الْبَحْرِ »

ورواه الترمذى[1] عن هناد قال حدثنا أبوالأحوص ، عن

---

(١) فى «الزهد»(٤/٦٥٦-٦٥٧رقم٢٤٩٥) .
والحديث أخرجه هناد فى «زهده»(٢/٤٥٦رقم٩٠٥) بنفس السند
وأخرجه أحمد فى «المسند»(٥/١٥٤) قال حدثنا عمار بن محمد — ابن أخت الثورى ، عن ليث بن أبى سليم .
وليث ضعيف لكنه تابعه موسى بن المسيب الثقفى
أخرجه ابن ماجة فى الزهد (٢/١٤٢٢رقم٤٢٥٧) عن عبدالله بن سعيد ، حدثنا عبدة بن سليمان ، عنه
وأحمد فى «المسند»(٥/١٧٧) عن ابن نمير عنه
والبيهقى فى «شعب الإيمان»(الباب٤٧) من طريق ابراهيم بن طهمان ، عن الأعمش عنه به
وموسى بن المسيب ضعّفه الأزدى . وقال ابن معين وأبوحاتم : صالح الحديث . وقال ابن حجر فى «التقريب» : صدوق ، لايلتفت الى الأزدى فى تضعيفه .
وله متابعة أخرى من عبدالحميد بن بهرام — أخرجه أحمد(٥/١٥٤) عن هاشم بن القاسم ، عنه .
وذكر المزى ان هؤلاء الثلاثة توبعوا من سيار أبى الحكم ، وغيلان بن جرير وغير واحد ، عن شهر بن حوشب ، عن عبدالرحمن بن غنم .
أما حديث شهر عن معديكرب عن أبى ذرّ فقال المزى : رواه عامر الأحول .
وقال ابن حجر : رواه عارم وأسد بن موسى ، عن مهدى بن ميمون عن غيلان ابن جرير ، عن شهر ، عن معديكرب . راجع «تحفة الأشراف»(٩/١٧٩) .

ليث(يعنى ابن أبىسليم) ، عن شهر بن حـوشب ، عن عبـدالرحمن بن غنم ، عن أبىذر قال قال رسول الله ﷺ :

يقول الله عز وجل :

١ ـ يَاعِبَادِى ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُه فَسَلُونى الْهُدَى أَهْدِكُم ؛

٢ ـ وَكُلُّكُمْ فَقِيْرٌ إلاَّ مَنْ أَغْنَيْتُ فَسَلُوْنِى أَرْزُقْكُم ؛

٣ ـ وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إلاَّ مَنْ عَافَيْتُ ؛

٤ ـ فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّىْ ذُوْقُـدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ ، فَـاسْتَغْفَرَنِى غَفَرْتُ لَه وَلاَأُبَالِى ؛

٥ ـ وَلَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَـابِسَكُمْ اجتَمَعُـوْا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِّنْ عِبَادِىْ مَـازَادَ ذلِـكَ فِى مُلْكِى جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ ؛

٦ ـ وَلَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجتَمَعُوْا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِّنْ عِبَادِى مَـانَقَصَ ذلِكَ مِنْ مُلْكِى جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ ؛

٧ ـ وَلَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَـابِسَكُمْ اجتَمَعُوْا فِى صَعِيْدٍ وَاحِدٍ فَسَـأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِّنْكُمْ مَابَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِّنْكُمْ مَـانَقَصَ ذلِـكَ مِنْ مُّلْكِى إِلاَّ كَمَـا لَوْ أَنَّ أَحَـدَكُمْ مَرَّ بِـالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيْـهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ .

ذلِكَ بِأَنِّىْ جَوَادٌ مَـاجِـدٌ ، افعلُ مَـاأُرِيْـدُ . عَطَـائِى كَلاَمٌ ، وَعَـذَابِىْ كَـلاَمٌ . إِنَّمَـا أَمْرِى لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْتُـهُ أَنْأَقُـوْلَ لَـهُ كُنْ فَيَكُوْن .

قال أبوعيسى : هذا حديث حسن . وروى بعضهم هذا الحديث عن شهر بن حوشب ، عن معديكرب ، عن أبىذرّ عن النبى ﷺ نحوه .

وروى عن أبىموسى عن النبى ﷺ انه قال :

ان الله تعالى يقول :

« يَاعِبادِى ! كلُّكم ضالٌّ إلا من هديتُ ،

وضعيفٌ إلا مَن قَوَّيتُ ،

وفقيرٌ إلا مَن أغنيتُ ،

فسَلُونى أُعطِكم .

فلو أَنَّ أوَّلَكم وآخِرَكُم ، وإنسَكُم وجِنَّكُم ، وحَيَّكُم ومَيِّتَكُم ، ورَطْبَكُم ويَابِسَكم اجتمعُوا على قَلبِ أتقَى عبدٍ مِن عِبادى مازادَ فى مُلْكى جَناحَ بَعُوضةٍ ؛

وَلَو أَنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم ، وجِنَّكُم وإنْسَكُم ، وحَيَّكُم ومَيِّتَكُم ، ورَطْبَكُم ويَابِسَكُم اجتَمَعُوا عَلى قَلْبِ أفجرِ عبدٍ هو لى مانَقَصُوا مِن مُلْكى جناحَ بعُوْضَة ؛

ذلك بأَنِّى واحِدٌ ، عذَابِى كلامٌ ، ورَحمتى كلامٌ ،

فمَن أيْقَنَ بقُدْرَتى عَلى المَغْفِرَة لم يَتَعَاظَمْ فِى نَفْسى أَنْأَغْفِرَ له ذُنُوْبَه وَإنْ كَثُرَتْ » .

رواه الطبرانى فى «الأوسط والكبير» وفيه عبدالملك بن هارون بن عنترة ، وهو مجمع على ضعفه[1].

قاله الهيثمى فى «مجمع الزوائد»(١٠/١٥٠) .

فهذا حديث قدسى . والحديث القدسى : هو مايحكيه رسول الله ﷺ عن الله عز وجل . فكلماته من عند الرسول ﷺ ، ولكن المعنى ـ أو الرسالة التى يتضمنها الحديث ـ من عند الله تبارك وتعالى .

و«القدسى» نسبة الى القدس وهو الطهارة والتنزيه فهى نسبة تكريم واجلال .

ويطلق على مثل هذه الأحاديث «الأحاديث الالهية» و«الأحاديث الربّانية» أيضا .

ولرواية هذه الأحاديث طريقان :

---

(١) (قلت) عبدالملك بن هارون بن عنترة ذكره الذهبى فى «الميزان»(٢/٦٦٦ـ٦٦٧) وقال : قال الدارقطنى : هما ـ هووأبوه ـ ضعيفان . وقال أحمد : عبدالملك ضعيف . وقال يحي : كذاب . وقال أبوحاتم : متروك ، ذاهب الحديث . وقال ابن حبان : يضع الحديث . وقال السعدى : عبدالملك بن هارون دجّال كذاب .
وقال صالح بن محمد : عامة حديثه كذب ، وأبوه ثقة . وضعفه يعقوب بن سفيان أيضا .
راجع «المعرفة والتاريخ»(٣/٥٦) «الجرح والتعديل»(٥/٣٧٤) «الضعفاء والمتروكون»(٢٨٩رقم٣٦٢) «سوالات البرقانى»للدارقطنى(٤٠رقم٢٥٢) «المجروحين»(٢/١٢٨) «الضعفاء»للعقيلى(٣/٣٨) «الكامل»(٥/١٩٤٢) «لسان الميزان»(٤/٧٢) .

١ ـــ ان يقول الراوى : «قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ» ويقال ان هذه عبارة السلف .

٢ ـــ ان يقول الراوى : قال رسول الله ﷺ : «قال الله تعالى» أو «ان الله تعالى يقول» أو «يقول الله تعالى» .

ويروى أحيانا بواسطة جبريل بين النبى ﷺ وبين الله تبارك وتعالى .

ولما كانت هناك مظنة التخليط بين الحديث القدسى والقرآن الكريم حيث ان كليهما من عند الله تبارك وتعالى ، تعرَّضَ العلماء لتوضيح الفرق بين الاثنين ، وذكروا فى ذلك وجوها :

١ ـــ ان القرآن جميعه قطعىّ الثبوت ، لأنه نُقل بالتواتر وقد تكفل الله بحفظه وصيانته من أىّ تغيير أو تبديل أو تحريف . فأعلن فى كتابه ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ** ﴾[1] .

والحديث القدسى ليس كذلك فهو ظنّى الثبوت ومعظم الأحاديث القدسية أخبار آحاد تخضع لقواعد القبول والرد التى وضعها العلماء . وبناء على ذلك يكون منها الصحيح والضعيف . ونسبته الى الله تبارك وتعالى لاتعنى صحته كما قديتوهمه البعض .

٢ ـــ إن القرآن معجزة باقية على مرّ العصور ، بخلاف الحديث القدسى .

٣ ـــ يختص القرآن بأحكام شرعية لاتنطبق على الحديث القدسى :

---

(١) سورة الحجر(٩/١٥) .

منها : ان القرآن تحرم روايته بالمعنى .

ومنها : ان له ولاجزائه أسماء خاصة ، لايجوز اطلاقها على غيره كالقرآن ، والسورة والآية .

ومنها : ان مجرد تلاوته أمر تعبّدى ويؤجر قارئه بكل حرف عشر حسنات كما ورد فى الحديث الصحيح .

ومنها : ان المُحدِث لايجوز له مَسُّ القرآن ، والجنب لايجوز له تلاوته .

٤ ـ القرآن ماكان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جَلىّ . وأما الحديث القدسى فهو ماكان لفظه من عند رسول الله ﷺ ومعناه من عند الله تبارك وتعالى بالالهام أو المنام .

والواقع ان الحديث النبوى يكون معناه أيضا من عند الله تبارك وتعالى . فالله يقول :

﴿ وَمَايَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُّوْحَى ﴾[2].

فالتحقيق ان الحديث القدسى يختلف عن الحديث النبوى فى ان القول فى الأول منسوب الى الله تعالى بخلاف الثانى .

ولزيادة التوضيح نريد أن نشرح الطرق التى اختارها الله تبارك وتعالى لإعلام أنبيائه . قال الله تعالى :

﴿ وَمَاكَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُّكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُوْلاً فَيُوْحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ ﴾[3]

---

(٢) سورة النجم(٥٣/٣ـ٤) .

(٣) سورة الشورى(٤٢/٥١) .

فبيّن الله تعالى ان هناك ثلاث كيفيات يتم بها إبلاغ توجيهات الله لرسله :

١ ــ الوحى ــ وهو هنا يعنى الالهام أى القاء الفكرة فى قلب النبى دفعة . ويكون هذا الالهام فى المنام كما يكون فى اليقظة .

٢ـ الكلام من وراء حجاب : **أى يُكَلِّم الربُّ النَّبِىّ ، فيسمع النبىُّ كلامه** ولا يراه ، كما حصل لموسى عليه السلام حين مانودى : ﴿ **إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** ﴾ وكما كلمه لما جاء لميقاته وقال : « **رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ** » قال : ﴿ **لَنْ تَرَانِى** ﴾ .

وحصل ذلك لنبيّنا ﷺ فى ليلة المعراج .

٣ ــ إعلام الله لنبيّه مايريد ابلاغه اليه بواسطة الملك . ثم الاعلام بواسطة الملك يقع على وجهين :

○ أحيانا يشاهد النبىُّ الملَكَ عند الوحى ، إما على صورته الحقيقية ــ وهذا نادر . وفى حديث عائشة عند مسلم[٤] ان النبى ﷺ لم يره فى صورته التى خلق عليها إلاَّ مرَّتَين . والظاهر انه لم يكن فى هذا اللقاء ابلاغ ؛

وإما متمثلا فى صورة بشر ، كما كان جبريل يتمثل للنبى ﷺ فى صورة دحية الكلبى .

○ وتارة لايرى النبى الملك عند الوحى ، وانما يسمع دَوِيًّا وصلصلةً شديدةً لايعلم كنهها ، فيعتريه حالةٌ روحيةٌ غير عادية لايدركُ الحاضرون منها إلا أماراتِها الظاهرية كثقل بدنه وتفصُّد جبينه عرقا .

---

(٤) كتاب الايمان(١٥٩/١رقم٢٨٧) .

وقدروى البخارى[٥] عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ! كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ـ وهو أشدّه علىّ ـ فيفصم عنّى وقدوعيتُه عنه ماقال ؛ وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيُكَلّمنى فأَعِي مايقول » .

قالت عائشة : ولقدرأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنَّ جبينه ليتفصَّدُ عرقا .

وقال العلماء انه لابد انتوجد مناسبة بين المبلّغ والمبلَّغ اليه ولذلك كان تنزيل القرآن على النبى ﷺ يأخذ شكلين :

أحدهما : ان النبى ﷺ ينخلع من صورة البشرية الى صورة الملكية ويأخذه من جبريل .

والثانى : أن ينخلع الملك الى البشرية حتى يأخذه الرسول منه .

والأول أصعب الحالين[٦] .

فالقرآن لفظه ومعناه من الله تبارك وتعالى وكان لنزوله على النبى ﷺ كيفية خاصة .

أما الحديث القدسى فيكون فيه المعنى أو الفكرة فقط من الله تبارك وتعالى ويبلغه الرسول ﷺ بألفاظه . وهذه الفكرة أحيانا تأتى بالوحى وأحيانا فى المنام .

---

(٥) باب بدء الوحى(١/٢-٣) .

(٦) راجع «فتح البارى(١/٢٠) و«الاتقان»(١/٤٤) .

والأحاديث القدسية لاتتعلق بالأحكام التكليفية ، ولاتكون لمعالجة واقعة معينة ، أو حل مشكلة خاصة أو عامة ، كما هو الحال فى الحديث النبوى ، بل هى تتضمن توجيهات ربانية ممايتعلق بتوطيد عقيدة التوحيد ، وتوضيح كمال قدرة الله وعظمته ، وبتصحيح السلوك فى المجتمع طلبا لمرضاة الله سبحانه وتعالى .

فالأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه وتعالى فهى :

١ ــ تبيّن عظمته ، وتقوم بالاعلان عن كبريائه ، وعزته وجلاله كما جاء فى الحديث الذى قال فيه رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى انه قال :

« إن العزّ إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما عذبتُه »[٧]

وكما جاء فى حديث أبىذرّ .

٢ ــ تقوم ببيان سعة رحمة الله تعالى ، وكمال فضله وكرمه وجوده وسخائه .

وأحسن مثال لذلك حديث أبىهريرة[٨] عن رسول الله ﷺ قال قال الله تبارك وتعالى :

« أعددتُ لعبادى الصالحين مالا عينٌ رَأَتْ ولاأُذُنٌ سَمِعت ، ولاخطَرَ على قلبِ بشر »

وفى حديث آخر[٩]: ان الله تعالى يقول :

« اذا أخذتُ كريمتَىْ عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاءٌ عندى إلا الجنة »

---

(٧) أخرجه أبوداود(٣٥٠/٤رقم٤٠٩٠) وابن ماجة(../١٣٩٧رقم٤١٧٤) وأحمد(٢٤٨/٢،٣٧٦) .

(٨) أخرجه البخارى(٢١/٦) ومسلم فى الجنة(٢١٧٥/٣رقم٤) وغيرهما .

(٩) رواه الترمذى فى الزهد(٦٢٠/٤رقم٢٤٠٠) .

٣ ــ تبيّن سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وكثرة عطائه ، واستغنائه عن الخلق ، واحتياجهم اليه .

ففى حديث قال الله تبارك وتعالى :

« يُوذينى ابن آدم يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار »[١٠]

والحاصل ان الأحاديث القدسية تقوم باظهار قدرة الله وعظمته وسعة ملكه ، وعزته وجبروته ، وغالبها تأتى فى أسلوب جميل يجذب القلوب ويرقق الطبائع . وقلّما نجد فيها وعيدًا أو ترهيبًا من نوع مانجده فى القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية .

انظر مثلا قوله تعالى فى حديث قدسى[١١] :

« من عادى لى وليّا فقدآذنتُه بالحرب . وماتقرّب الىّ عبدى بشىء أحبّ الىّ ممّاأفترضته عليه . ومايزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى أُحِبّه . فاذا أحببته كنتُ سمعه الذى يَسمع به ، وبصره الذى يُبصر به ، ويده التى يَبطشُ بها ، ورجله التى يمشى بها ، وانسألنى لأُعطينّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه . وماترددتُ عن شىء أنا فاعله تردُّدى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأناأكره مساءته »

فالجملة الأولى منه تتضمن تهديدا بالغا ، ولكن الجمل التالية مشحونة ببيان اللطف والاحسان ، والتقدير والتحسين الذى به يُقبل الله على عباده المقربين .

---

(١٠) رواه البخارى(٦/٤١) ومسلم(٢/١٧٦٢رقم٢) .

(١١) رواه البخارى(٧/١٩٠) .

أين هذا من قوله عز وجل فى القرآن :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُوْلَ مَنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيْرًا ﴾[١٢]

أو قول النبى ﷺ فى حديثه :

« ذِمَّةُ المسلمين واحدةٌ يَسعَى بها أدناهم . فَمن أَخفر مسلمًا فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يَقبلُ الله منه صرفا ولاعدلا »[١٣]

حديث أبىذر هو أطول حديث قدسى وأجمعه فقدتضمن قواعد عظيمة فى الدين فى العلوم والأعمال والأصول والفروع . وقام شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذه الرسالة بالإشارة الى هذا القواعد ، والكشف عن المعانى واللطائف التى يشتمل عليها . وقال ان الجملة الأولى منه وهو قوله : « **انى حرمت الظلم على نفسى** » يتضمن جل مسائل الصفات والقدر . وذلك ان فرقة من المسلمين قاموا بتشبيه الخالق بالمخلوق فأوجبوا عليه أشياء ، وحرَّموا أخرى فقالوا ان الله يجب عليه فعل ما هو الأصلح للعباد ، كما يجب عليه جزاء المحسن باحسانه وعقوبة المذنب بذنبه ، وانه يحرم عليه ان لا يعاقب المجرم أو ان يحرم المحسن جزاء حسناته .

ثم انهم منعوا أن يكون الله قادرا على خلق افعال العباد فقالوا لو ان الله خلق الظلم لكان ظالما . وهذا تدليس منهم . فالناس يفهمون ان الظالم مَن قامَ بفعل الظلم ، وليس مَن خَلقَ الظلمَ . وليس كل من

---

(١٢) سورة النساء(٤/١١٥) .

(١٣) رواه البخارى(٢/١٢٢) ومسلم فى الحج(١/٩٩٩رقم٤٧٠)

خلق شيئا يتصف به . هذا لا يقول به عاقل .

وذهب بعض الناس الى أن الظلم من الله تعالى ممتنع لذاته ولكن الحديث ينطق بصراحة ان الله حَرَّم على نفسه الظلم وهذا فى مقام المدح له ، ولا يستوجب أحد المدح بترك الشيء الذى ليست له قدرة على فعله . فالله تعالى قادر على كل شيء فاذا أخبر عن نفسه انه كتب على نفسه الرحمةأو حَرّم على نفسه الظلم فمعناه انه يحب الرحمة ويريدها ، ويرضاها ويوقعها بمن يشاء ، أو انه يبغض الظلم ويكرهه ولا يريد ان يوقعه على أحد .

والظلم الذى حرّمه الله على نفسه هو مثل ان يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها،ويعاقب البرئ على ما لم يفعل من السيئات ، ويعاقب هذا بذنوب غيره،أو يحكم بين الناس بغير القسط .

وقدأشار الحديث الى شيء آخر هام هو ان الظلم الذى أمر الله عباده بالابتعاد عنه هو كل مانهى الله عنه ، وضده العدل وهو كل ماأمر الله به ان يفعل . وأصل العدل هو التوحيد وأصل الظلم هو الشرك . فالتوحيد ومايتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ، والذنوب التى فيها تفريط أو عدوان فى حقوق الله تعالى وحقوق عباده هى فساد وظلم . ولهذا كان العدل أمرا واجبا فى كل شيء وعلى كل أحد ، والظلم محرما فى كل شيء ولكل أحد .

وهكذا اشتمل هذا الحديث على قواعد الدين الأساسية .

ثم بيّن الحديث ان العباد كلهم محتاجون الى الله ، لا يقدرون على جلب منفعة أو دفع مضرة لأنفسهم إلا بعون الله وتيسيره.وجلب المنفعة ودفع المضرة اما ان يكون فى الدين أو فى الدنيا . وهذا ينحصر فى أربعة أقسام :

○ فجلب المنفعة فى الدين ينحصر فى الهداية ،

○ وجلب المنفعة فى الدنيا ينحصر فى الطعام ،

○ ودفع المضرة فى الدين يكون بالمغفرة ،

○ ودفع المضرة فى الدنيا يكون بالكسوة .

وهذه الأقسام الأربعة اشتمل عليها هذا الحديث وصرّح بأنه لايمكن لإنسان الوصول اليها والفوز بها إلا برحمة من الله وفضل .

وقدقام شيخ الإسلام بشرح معنى «الهداية» بحيث لايترك مجالا لشبهة فقال :

ان الهدى أربعة أقسام :

١ ـ الهداية الى مصالح الدنيا . وهذا مشترك بين الحيوان والانسان ، وبين المؤمن والكافر فكلٌ هداه الله لرعاية مصالحه .

٢ ـ الهدى بمعنى دعاء الخلق الى ماينفعهم بنصب الأدلة وارسال الرسل وانزال الكتب . وهذا أيضا مشترك بين جميع المكلفين ووصف الله نبيه ﷺ بالهادى على هذا المعنى .

٣ ـ الهدى بمعنى جعل الهدى فى القلوب أو كما يقال : الايصال الى المطلوب . وهذا مايسمى المتكلمون بخلق القدرة على الطاعة . وهذا هو الذى نفى الله عن نبيه ﷺ حين ماقال :

﴿ إِنَّكَ لَاتَهْدِىْ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِىْ مَنْ يَّشَاءُ ﴾[١٤]

وهذاماينكره المعتزلة فعندهم ان العبد هو الذى يهدى نفسه .

---

(١٤) سورة القصص(٢٨/٥٦) .

فالله لايقدر من الهدى إلا على مافعله من ارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العلة . فلا مزية عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى .

٤ ـــ الهدى فى الآخرة . وهو يتبع العمل فى الدنيا ان خيرًا فخير وان شرًا فشر ، كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيْهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيْمَانِهِمْ تَجْرِىْ مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِىْ جَنَّاتِ النَّعِيْمِ ﴾(١٥)

وكما قال :

﴿ ٱحْشُرُوْا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَاكَانُوْا يَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ فَاهْدُوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيْمِ ﴾(١٦)

ثم ان الحديث يأمر الناس بالتوكل على الله فى الرزق ولكن التوكل لايعنى طرح الأسباب المودية الى تحصيل الرزق فقدأخطأ من ظن ان تحصيل الأسباب ينافى التوكل .

والحديث يشير أيضا الى سعة مغفرته تبارك وتعالى فلايعظم عليه ذنب . وهنا يشير شيخ الإسلام الى ان الله تعالى اذا شاء غفر ذنوب عباده بدون توبة وهو قدوعد فى كتابه انه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

ومغفرة الله تعالى لذنوب عباده ربما تأخذ شكلا آخر وهو ان يخفف العذاب أو يؤخر الى أجل مسمى .

---

(١٥) سورة يونس(٩/١٠) .

(١٦) سورة الصافات(٣٧/٢٢ـ٢٣) .

والحديث ينتهى بتحقيق ماسبق فيه من العدل والاحسان من الله تعالى . فالجزاء على الأعمال الصالحة احسان من الله ونعمة يستحق عليها الحمد لأنه هو الموفق لها وعقابه على السيئات عدلٌ منه استحقه العبد بفعله وهذا كما قال الله تعالى فى كتابه :

﴿ مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَاأَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَّفْسِكَ ﴾(١٧)

هذا الشرح المفيد موجود فى مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(١٨/١٣٦ـ٢٠٩) ونشرت ضمن الرسائل المنيرية(٣/٢٠٥ـ٢٤٦) ولكن الناشر لم يهتم بتصحيح العبارة ، بل نشر الرسالة كما كانت مع أخطائها . فصححتُ ماعثرتُ عليه من الأخطاء وخرجت الأحاديث والآثار وقمت بالتعليق على المواضع التى كانت فى حاجة الى التوضيح .

وادعو الله العلى القدير أن ينفع به عامة المسلمين ويجعله خالصا لوجهه الكريم .

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .

وصلى الله على نبيه الكريم .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الراجى عفو ربه

عبدالعلى عبدالحميد حامد

---

(١٧) سورة النساء(٤/٧٩)



شرح حديث أبى ذر رضى الله عنه

لشيخ الاسلام تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية الحرانى
المتوفى سنة ٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية عن معنى حديث أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يـا عِبـادى ! إنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلى نَفْسِى ، وجَعَلْتُـه بَيْنَكُم مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا . يَا عِبـادى ! كُلُّكُم ضـالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُـهُ فَاسْتَهْدُونى أَهْدِكُم . يـا عِبـادى ! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُه فَاسْتَطْعِمُوْنى أُطْعِمْكُم . ياعِبادِى ! كُلُّكُم عَـارٍ إلا مَن كَسَـوْتُـه فَـاسْتَكْسُـونى أُكْسِكُم . ياعِبادى ! إنَّكُم تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهار ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونى أَغْفِرْ لَكُم . ياعِبادى ! إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُـوا ضُرِّى فَتَضُرُّوْنِى ، ولَن تَبْلُغُـوا نَفْعى فَتَنْفَعُـوْنى . يـاعِبـادى ! لَـو أنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإنْسَكُم وجِنَّكُم كانُـوا عَلى أَتْقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِـدٍ مِنكم مَـا زادَ ذلـك فى مُلْكى شيئًـا . يـاعِبـادى ! لَـو أنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم

وإنْسَكم وجِنَّكُم كانُوا عَلى أَفجَرِ قلبِ رجُلٍ واحـدٍ منكم مَانَقَصَ ذلـك مِن مُلْكِى شيئًـا . يـاعِبـادى ! لَو أنَّ أوّلَكُم وآخِرَكِم وإنْسَكُم وجِنَّكُم قـامُوا فى صعيـدٍ واحـدٍ فسَأَلُونى فـأعطَيْتُ كُـلَّ انسـانٍ منهم مَسْأَلَتَـه مـانقَصَ ذلـك مِمَّـا عندى إلاَّ كما يُنْقُصُ المِخْيَطُ إذا دَخَلَ البحرَ . يـاعِبادى ! إنَّما هِى أعمـالُكم أُحْصِيْهـا لَكُم ثم أُوَفِّيكم إيَّـاهـا ، فَمَن وَجَـدَ خيرًا فَلْيَحْمَـدِ اللهَ عـزَّ وجَـلَّ ؛ ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فَلا يَلُوْمَنَّ إلا نَفْسَه »

فأجاب رضى الله عنه :

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمين ، ولاحولَ ولاقُوَّةَ إلا بالله .

أمـا قـولـه تعـالى : « يَـاعِبَـادِى إنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلى نَفْسِى » ففيه مسألتان كبيرتان ، كل منهما ذات شُعَب وفروع :

إحداهما فى الظُّلم الـذى حرَّمَـه الله على نفسـه ، ونَفَـاه عن نفسـه بقوله : ﴿ وَمَاظَلَمْنَاهُمْ ﴾[1] .؛

وقوله : ﴿ وَلاَيَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2] .؛

وقوله : ﴿ وَمَارَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيْدِ ﴾[3] .؛

---

(١) وردت هـذه اللفظـة فى ثلاثـة مـواضـع : سـورة هـود(١٠١/١١) ، سـورة النحل(١١٨/١٦) ، سورة الزخرف(٧٦/٤٣) .

(٢) سورة الكهف(٤٩/١٨) .

(٣) سـورة حمٓ السجـدة(٤٦/٤١) . وورد « وأن الله ليس بظـلام للعبيـد » فى سـورة آل عمران(١٨٢/٣) ، والأنفـال(٥١/٨) ، والحـج(١٠/٢٢) وجـاء « ومـا أنـا بظـلام للعبيد » فى سورة ق(٢٩/٥٠) .

وقوله :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَيَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾[٤] ؛

وقوله :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيْلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَتُظْلَمُوْنَ فَتِيْلاً ﴾[٥].

ونَفَى ارادتَه بقوله : ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيْدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِيْنَ ﴾[٦]

وقوله : ﴿ وَ مَا اللهُ يُرِيْدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾[٧] .

ونَفَى خوفَ العباد له بقوله :

﴿ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلايَخَافُ ظُلْمًا وَ لاَهَضْمًا ﴾[٨]

فإن الناس تنازَعُوا فى معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ، ووسطٍ بينهما ، وخيارُ الأمور أوساطُها ، وذلك بسبب البحث فى القدر ومجامعته للشرع . إذ الخوض فى ذلك بغير علمٍ تامّ أوجبَ ضلالَ عامَّة الأمم ؛ ولهذا نهى النبى ﷺ أصحابه عن التنازع فيه .

فذهب المكَذِّبون بالقدر ، القائلون بأن الله لم يخلُق

---

(٤) سورة النساء(٤/٤٠) .

(٥) نفس السورة(٤/٧٧) .

(٦) سورة آل عمران(٣/١٠٨) .

(٧) سورة المؤمن(٤٠/٣١) .

(٨) سورة طـه(٢٠/١١٢) .

أفعال العباد ، ولم يُرد أن يكون إلا ما أمَر بأن يكون ؛ وغُلاتُهم المكذِّبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم ــ الى أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض . وشبَّهوه ومثَّلوه فى الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال . وضربُوا لله الأمثالَ ، ولم يجعلوا له المَثل الأعلى ، بل أوجبوا عليه وحَرَّموا ما رأوا أنه يجبُ على العباد ويحرمُ بقياسه على العباد ، واثبات الحكم فى الأصل بالرأى .

وقالوا عن هذا : إذا أمر العبدَ ولم يُعِنْه بجميع ما يقدرُ عليه من وجوه الإعانة كان ظالما له ؛ والتزموا أنه لا يقدرُ أن يَهدى ضالاً ، كما قالوا أنه لا يقدر أن يُضلَّ مهتديا .

وقالوا عن هذا : إذا أمرَ اثنين بأمر واحدٍ ، وخَصَّ أحدهما بإعانته على فعل المأمور كان ظالما ؛ الى أمثال ذلك من الأمور التى هى من باب الفضل والإحسان جعلوا تركَه لها ظلما ، وكذلك ظنُّوا أن التعذيب لمن كان فعله مُقدَّرا ظلمٌ له . ولم يُفرّقوا بينَ التعذيب لمن قام به سببُ استحقاق ذلكِ ومن لم يقم . وان كان ذلك الاستحقاق خلَقَه لحكمة أخرى عامّةٍ أو خاصّةٍ .

وهذا الموضع زَلَّت فيه أقدامٌ ، وضلَّتْ فيه أفهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المُثْبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه حقيقةٌ يمكن وجودها بل هو من الأمور المتنعة لذاتها ، فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا أن يقال أنه هو تاركٌ له باختياره ومشيئته ، وانما هو من باب الجمع بين الضدَّيْن ، وجعل الجسم الواحد فى مكانَين ، وقلب القديم محدثا والمحدث قديما ؛ وإلا فمها قُدّر فى

الذهن ، وكان وجوده ممكنا ، والله قادرٌ عليه فليس بظلم منه سواء فعلَه أو لم يفعَلْه .

وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الاثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ومن شُرَّاح الحديث ونحوهم وفَسَّروا هذا الحديث بما ينبغى على هذا القول ، وربما تعلّقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما روينا عن إياس بن معاوية أنه قال : ماناظرتُ[9] بعقلى كُلّه أحدا إلا القدرية . قلتُ لهم : ماالظلمُ ؟ قالوا : أن تأخُذَ ماليسَ لك أو أن تتصرَّف فيما ليس لك . قلت : فلله كل شىء .

وليس هذا من إياس إلا ليُبيّن ان التصرفات الواقعة هى فى ملكه فلا يكون ظلما بموجب حدّهم وهذا مما لانزاع

---

(9) وفى الرسائل المنيرية « ومانظرت » .

وإياس بن معاوية بن قرة بن اياس بن هلال المزنى ، أبوواثلة البصرى(م١٢٢هـ) تولى قضاء البصرة . وكان عاقلا فطنا لبيبا ، كان يضرب به المثل فى الذكاء والدهاء والسودد والعقل. له أخبار مشهورة وحكايات منشورة فى كتب الاسمار والأدب مثل كتب الجاحظ والعقد الفريد ومحاضرات الراغب ونحوها .

له ترجمة مبسوطة فى «تهذيب الكمال» للمزى(٣/٤٠٧ـ٤٤٠) وقال الدكتور بشار عواد : ألف المدائنى كتابا فى أخباره ، ذكره ابن النديم(١٥٢) كما ألف عبدالعزيز ابن يحي بن أحمد بن عيسى كتابا فى أخباره ثم قال : ومن احفل التراجم وأوسعها هى ترجمة حافظ الشام ابى القاسم ابن عساكر له فى «تاريخ دمشق» وعليها كان جلّ اعتماد المزى فى أخباره .

وأخرج المزى قوله هذا فى «التهذيب»(٣/٤١٦) ، وأبونعيم فى «الحلية»(١/١٢٤) وذكره ابن عبدربه فى «العقدالفريد»(٢/٣٧٨) .

وانظر ترجمته أيضا فى «طبقات ابن سعد»(٧/٢٣٤) و«الحلية»(٣/١٢٣ـ١٢٥) «ابن خلكان»(١/٢٤٧ـ٢٥٠،٤١٨ـ٤٢٠) .

بين أهل الاثبات فيه ، فانهم مُتّفقون مع أهل الإيمان بالقدر على أنَّ كُلَّ مافَعَله اللهُ فهو عدلٌ .

وفى حديث الكرب الذى رواه الإمام أحمد[10] عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول‌الله ﷺ :

« ماأصابَ عبدًا قطُّ هَمٌّ ولاحزنٌ فقال :"اللهُمَّ إنِّى عبدُك ، ابنُ عبدك ، ابنُ أَمَتك ، ناصِيتى بيدِك ، ماضٍ فِيَّ حُكمُك ، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤُك ؛ أسألُك بكُلِّ اسمٍ هو لكَ سمَّيْتَ به نفسَك . أو أنزلتَه فى كتابك ، أو علَّمْتَه أحدًا من خَلقك ، أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك أن تجعلَ القُرآنَ ربيعَ قَلبى ونُورَ صدرى وجلاءَ حُزنى وذهابَ هَمّى وغَمّى"، إلا أذهبَ اللهُ همَّه وغمَّه ، وابدَلَه مكانَه فرحًا »

قالوا يارسول‌الله ! أفلانَتَعَلَّمهُن ؟ قال :

« بلى ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلَّمَهن »

---

(١٠) أخرجه فى «المسند»(١/٣٩١ـ٤٥٢) من طريق أبى‌سلمة الجهنى ، عن القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود ، عن أبيه ، عن عبدالله .
ومن نفس الطريق أخرجه أبويعلى ، وابن حبان(ص٥٨٩رقم٢٣٧٢) والحاكم فى «المستدرك»(١/٥٠٩ـ٥١٠) وقال صحيح على شرط مسلم إن سلم من ارسال عبدالرحمن بن عبدالله ، فانه مختلف فى سماعه من أبيه ـ وتعقبه الذهبى فقال : وأبوسلمة لايدرى من هو ؟ ولارواية له فى الكتب الستة .
وأورده الهيثمى فى «المجمع»(١٠/١٣٦) وقال رواه أحمد وأبويعلى والبزار ورجال أحمد وأبى‌يعلى رجال الصحيح غير أبى‌سلمة الجهنى وقدوثقه ابن حبان .
وقال أحمد شاكر فى تعليقه على «المسند» اسناده صحيح . راجع «المسند»(٥/٢٦٦ـ٢٦٧رقم٣٧١٢) .

فقدبَيَّنَ أن كلَّ قضائه فى عبده عدلٌ ولهذا يقال : كُلُّ نعمة منه فضلٌ . وكُلُّ نقمةٍ منه عدلٌ .

ويقال : أطعتُك بفضلك والمنة لك ، وعَصيتُك بعلمك أو بعَدْلِك والحُجَّةُ لك ، فاسألك بوجوب حُجّتك علىَّ وانقطاع حُجّتى إلاَّ ماغفرت لى .

وهذه المناظرة من إياس كما قال ربيعة بن أبىعبدالرحمن[11] لغيلان[12] حين قال له غيلان : نشدتُك اللهَ أترى الله يُحبُّ أن يُعصَى ؟ فقال نشدتُك الله أترى اللهَ يُعْصَى قسرًا يعنى قهرا ؟ فكأنما ألقمَه حجرا فإن قوله «يُحِبُّ أن يُعْصَى» لفظ فيه اجمال وقدلا يتأتى فى المناظرة تفسير المجملات خوفا من لدد الخصم ، فيُؤتى بالواضحات

---

(١١) ربيعة بن أبىعبدالرحمن فرّوخ الإمام ، أبوعثمان المعروف بربيعة الرأى(م١٣٦هـ) مفتى المدينة ، وعالم الوقت . كان من أئمة الاجتهاد ، وعليه تفقه الإمام مالك . وكان يجلس اليه وجوه الناس ، وكان يحصى فى مجلسه أربعون معتمّا . وكان مالك يقول بعد وفاته : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة . ترجمته فى «تاريخبغداد»(٨/٤٢٠ـ٤٢٦) «وفياتالأعيان»(٢/٢٨٨ـ٢٩٠) «السير»(٦/٨٩ـ٩٦) «تهذيبالتهذيب»(٣/٢٥٨) «شذرات»(١/١٩٤) .

(١٢) غيلان بن مسلم الدمشقى
كاتب من البلغاء ، تنسب اليه فرقة « الغيلانية » من القدرية . وهو ثانى من تكلم فى القدر ودعا اليه بعد معبد الجهنى . جرت بينه وبين الأوزاعى مناظرة فى حضرة الخليفة هشام بن عبدالملك فأفتى الأوزاعى بقتله فصلب على باب كيسان .
راجع «الفرق بين الفرق»(١٤،٩٦) و«الأعلام»للزركلى(٥/١٢٤) و«لسانالميزان»(٤/٤٢٤) .
وانظر محاورته مع ربيعة فى «العقدالفريد»(٢/٣٧٧) وكذلك مناظرة الأوزاعى معه(٢/٣٧٩ـ٣٨٠) .

فقال : أَفَتَراهُ يُعصَى قسرًا ؟ فإنَّ هذا الزامٌ له بـالعجز الـذى هو لازم للقدرية ولمن هو شَرٌّ منهم من الدهريـة الفلاسفـة وغيرهم . وكـذلـك إياس رَأى أن هذا الجوابَ المطابق لحدّهم خاصٌ لهم ولم يدخل معهم فى التفصيل الذى يطول وبالجملة فقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾[13]

قـال أهل التفسير[14] من السلف : لا يخـاف أن يُظلم فيُحمـل عليـه سيئاتُ غيره ، ولا يُهْضَم فيُنْقَص من حسناته ، ولا يجوز أن يكون هـذا الظلم هو شىء ممتنع غير مقدور عليـه فيكون التقـدير لا يخـاف مـا هو ممتنعٌ لـذاتـه خـارجٌ عن الممكنـات والمقـدورات . فـإن مثـل هـذا إذَا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا أنـه غير مقـدور ولو أراده كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده ، فضلا أن يُتَصوَّر خوفُـه حتى يُنْفَى خَوفُـه ؟ ثم أىّ فـائـدة فى نفى خـوف هـذا ؟ وقـدعُلم من سيـاق الكـلام انَّ المقصودَ بيـان أن هـذا العـامل المُحسن لا يُجْـزى على احسـانـه بـالظلم والهضم فعُلم أنَّ الظلمَ والهضمَ المنفىَّ يتعلـق بـالجـزاء كما ذكره أهـل التفسير ، وان الله لا يجزيه إلا بعمله . ولهذا كان الصواب الـذى دلت عليه النصوص ان الله لا يُعذّب فى الآخرة إلا من أَذْنَب كما قال :

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[15]

فلـو دخلهـا أحـد من غير أتبـاعــه لم تمتلىء منهم . ولهــذا ثبت فى

---

(13) سورة طـــه (20/112) .

(14) راجع «تفسير الطبرى» (16/217-218) وروى نحوه عن ابن عبـاس والحسن . وانظر «تفسير ابن الجوزى» (5/324) .

(15) سورة ص (38/85) .

الصحيحين فى حديث تَحاجّ الجنة والنار من حديث أبى هريرة[16] وأنس[17] : أن النَّارَ لاتمتلىءُ مِمَّنْ أُلْقِىَ فيها حتى يَنزوى بعضُها الى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعد قولها هل من مزيد . وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فيُنْشِىءُ الله لها خلقًا آخر .

ولهذا كان الصواب الذى عليه الأئمة فيمن لم يكلف فى الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ماصحَّ به الحديثُ وهو أنَّ الله أعلمُ بما كانوا عاملين[18] ؛ فلانحكم لكل منهم بالجنة ، ولا لكل منهم بالنار ، بل هم

---

(16) حديث أبى هريرة أخرجه البخارى فى التفسير(٦/٤٨) ومسلم فى صفة الجنة(٣/٢١٨٦رقم٣٦) وأحمد فى «المسند»(٢/٢٨٦،٣١٤،٥٠٧) .

(17) حديث أنس أخرجه البخارى فى التوحيد(٨/١٦٧) ومسلم فى صفة الجنة(٢١٨٨رقم٣٨) وأحمد فى «المسند»(٣/١٣٤،١٤١،٢٣٤) .

(18) جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بماكانوا عاملين »

رواه البخارى فى الجنائز(٢/١٠٤) وفى القدر(٧/٢١١) ومسلم فى القدر(٣/٢٠٤٨-٢٠٤٩رقم٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧) وأبوداود فى السنة(٥/٨٦-٨٨رقم٤٧١٤) والنسائى فى الجنائز(٤/٥٨) ومالك فى «الموطأ»(ص٢٤١) وأحمد فى «المسند»(٢/٢٤٤، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٨، ٣٢٥، ٣٤٦-٣٤٧، ٣٩٣، ٤٦٤، ٤٧١، ٤٨١، ٥١٨) .

وجاء من حديث ابن عباس أيضا .

أخرجه البخارى(٢/١٠٤) ومسلم(٣/٢٠٤٩رقم٢٨) وأبوداود(٥/٨٤رقم٤٧١١) والنسائى(٤/٥٩-٦٠) وأحمد(١/٢١٥، ٣٢٨، ٣٤١، ٣٥٨) وأبويعلى فى «المسند»(٤/٣٦٢رقم٢٤٧٩) .

قال ابن حجر : اختلف العلماء قديما وحديثا فى هذه المسئلة ـ مسئلة مصير أولاد المشركين ـ على أقوال :

أحدها : انهم فى مشيئة الله .«والحجة فيه حديث الله أعلم بماكانوا عاملين .»

الثانى : انهم تبع لآبائهم ، فأولاد المسلمين فى الجنة ، وأولاد الكفار فى النار .

ثالثها : انهم يكونون فى برزخ بين الجنة والنار ، لأنهم لم يعملوا حسنات يدخلون بها الجنة ولاسيئات يدخلون بها النار .

ينقسمون بحسب مايظهر من العلم منهم إذا كُلِّفُوا يوم القيامة فى العرصات كما جاءت بذلك الآثار[19] وكذلك قوله تعالى :

رابعها : انهم خدم أهل الجنة .
خامسها : انهم يصيرون ترابا .
سادسها : انهم فى النار .
سابعها : انهم يمتحنون فى الآخرة بأن ترفع لهم نار ، فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ، ومن أبى عذّب .
ثامنها : انهم فى الجنة .
قال النووى : وهو المذهب الصحيح المختار الذى صار اليه المحققون . لقوله تعالى :
﴿ وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . وإذا كان لايعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لايعذب غير العاقل من باب الأولى ، ولأحاديث وردت فى هذا المعنى .
تاسعها : الوقف .
عاشرها : الإمساك . وفى الفرق بينها دقة ، انتهى كلام الحافظ بتلخيص واختصار .
راجع «فتح البارى»(٣/٢٤٦ـ٢٤٧) .

(١٩) فروى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :
« يُؤتى بأربعةٍ يومَ القيامة : بالمولُود ، وبالمَعْتُوه ، وبمَن مَاتَ فى الفَترة ، والشيخ الفانى كُلُّهم يتكلّم بحُجّته فيقول الربُّ تبارك وتعالى لعنقٍ من النار : ٱبْرُزْ ، فيقول لهم : انّى كنتُ أبعثُ الى عبادى رُسُلا من أنفسهم ، وإنّى رسولُ نفسى اليكم ، ٱدخُلوا هذه . فيقول مَن كَتب عليه الشقاءُ يارَبّ اين ندخلُها ومنها كنا نفرّ ؟ قال : ومن كُتبت عليه السعادة يمضى فيتقحّم فيها مُسرعا . قال فيقول تبارك وتعالى : انتم لرُسلى أشد تكذيبا ومعصية . فيُدخِل هؤلاء الجنةَ وهؤلاء النارَ »
رواه أبو يعلى فى «مسنده»(٧/٢٢٥رقم٤٢٢٤) وأورده الهيثمى فى «المجمع»(٧/٢١٦) وقال : رواه أبو يعلى والبزار بنحوه وفيه ليث بن أبى سليم وهو مدلس وبقية رجال أبى يعلى رجال الصحيح وتعقبه الأستاذ حسين سليم أسد محقق المسند

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[20]

يدل الكلام على أنه لايظلم محسنا فينقصه من احسانه ، أو يجعله لغيره ؛ ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره ، بل لها ماكسبت وعليها مااكتسبت وهذا كقوله :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي

قائلا : عبدالوارث مولى أنس ليس من رجال الصحيح ولامن رجال السنن .

وله شاهد من حديث معاذ بن جبل أخرجه الطبرانى فى «الكبير»(٢٠/٨٣رقم١٥٨) وذكره الهيثمى فى «المجمع»(٧/٢١٦-٢١٧) وقال : رواه الطبرانى فى «الأوسط والكبير» وفيه عمرو بن واقد وهو متروك عند البخارى ورُمى بالكذب . وقال محمد بن المبارك الصورى : كان يتبع السلطان وكان صدوقا . وبقية رجال الكبير رجال الصحيح .

وشاهد آخر من حديث أبىسعيد أخرجه البزار وقال الهيثمى : فيه عطية وهو ضعيف .

وقال الحافظ ابن حجر : وقدصحّت مسألة الإمتحان فى حق المجنون ومن مات فى الفترة من طرق صحيحة .

وحكى البيهقى فى كتاب«الاعتقاد» انه المذهب الصحيح . وتعقب بأن الآخرة ليست دار تكليف فلاعمل فيها ولاابتلاء .

وأجيب بأن ذلك بعد أن يقع الاستقرار فى الجنة والنار . وأما فى عرصات القيامة فلامانع من ذلك .

وقدقال تعالى ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلايستطيعون ﴾ .

وفى الصحيحين : « ان الناس يومرون بالسجود فيصير ظهر المنافق طبقا فلا يستطيع أن يسجد » .

راجع «فتح البارى»(٣/٢٤٦-٢٤٧) وانظر «الاعتقاد»(٨٨-٩٢) .

(٢٠) سورة فصلت(٤١/٤٦) .

وَفَّى ، أَلاَّتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى ﴾[٢١]

فأخبره أنه ليس على أحد من وزر غيره شيءٌ ، وأنه لا يستحق إلا ماسعاه وكلا القولين حقٌّ على ظاهره .

وان ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ينافى الأول فليس كذلك ، إذ ذلك النائح يُعَذَّب بنوحه لايحمل الميتُ وزره ، ولكن الميّت يناله ألمٌ من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وان لم يكن جزاء الكسب .

والعذاب أعم من العقاب كما قال ﷺ :
« السَّفرُ قِطعةٌ من العَذَاب »[٢٢] .

وكذلك ظن قوم انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى ينافى قوله :
﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى ﴾[٢٣] .

---

(٢١) سورة النجم(٥٣/٣٦-٣٩) .

(٢٢) جزء من حديث رواه مالك فى الموطأ(ص٩٨٠) عن سُمَىّ مولى أبى بكر ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :
« السَّفَر قِطعةٌ من العذاب ، يمنعَ أحدَكم نومَه وطعامَه وشرابَه . فإذا قضى أحدكم نهمتَه من وجهه فليُعَجِّل الى أهله » .
وأخرجه البخارى فى أبواب العمرة(٣٠٥/٢) وفى الجهاد(١٧/٤) وفى الأطعمة(٢٠٨/٦) ومسلم فى الامارة(١٥٢٦/٢رقم١٧٩) وابن ماجة فى المناسك(٩٦٢/٢رقم٢٨٨٢) والدارمى فى الاستئذان(ص٦٨٢) وأحمد فى «المسند»(٢٣٦/٢،٤٤٥) .

(٢٣) سورة النجم(٣٩/٥٣) .

فليس الأمر كذلك فان انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية . ومَن ادَّعى أن الآية تُخالف أحدَهما دون الآخر فقولُه ظاهرُ الفساد ، بل ذلك بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة . وقدبَيَّنَّا فى غير موضع[٢٤] نحوا من ثلاثين دليلا شرعيا يبين انتفاع الإنسان بسعى غيره

---

(٢٤) انظر مثلا ماقاله المؤلف فى «الفتاوى»(٢٤/٣٠٦-٣٢٣) وجاء فيه : ان الأئمة اتفقوا على ان الصدقة تصل الى الميت ، وكذلك العبادات البدنية كالعتق . وانما تنازعوا فى العبادات البدنية كالصلاة ، والصيام والقراءة .

وسئل عمن يقرأ القرآن العظيم أو شيئا منه ، هل الأفضل أن يهدى ثوابه لوالديه ولموتى المسلمين ؟ أو يجعل ثوابه لنفسه خاصّةً ؟

فأجاب : أفضل العبادات ماوافق هدى رسول الله ﷺ وهدى الصحابة كما صح عَن النبى ﷺ أنه كان يقول فى خطبته :

خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » .

وقال ابن مسعود : من كان منكم مستنًا فليستن بمن قدمات ، فان الحى لاتومن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد .

فاذا عرف هذا الأصل والأمر الذى كان معروفا بين المسلمين فى القرون المفضلة أنهم كانوا يعبدون الله بأنواع العبادات المشروعة : فرضها ونفلها من الصلاة والصيام ، والقراءة والذكر وغير ذلك . وكانوا يدعون للمؤمنين والمؤمنات ، كما أمر الله بذلك لأحيائهم وأمواتهم فى صلاتهم على الجنازة وعند زيارة القبور وغير ذلك .

وروى عن طائفة من السلف : عند كل ختمة دعوة مستجابة . فاذا دعا الرجل عقيب الختم لنفسه ولوالديه ولمشايخه وغيرهم من المؤمنين والمؤمنات كان هذا من الجنس المشروع ، وكذلك دعاؤه لهم فى قيام الليل وغير ذلك من مواطن الإجابة .

وقدصح عن النبى ﷺ انه أمر بالصدقة عن الميت ، وأمر ان يصام عنه الصوم . فالصدقة عن الموتى من الأعمال الصالحة ، وكذلك ماجاءت به السنة فى الصوم عنهم .

إذ الآية انما نفتْ استحقاقَ السعى ومِلكه ، وليس كل مالا يستحقُّه الإنسانُ ولا يَملكه لا يجوزُ أن يُحسنَ اليه مالكُه ومستحقُّه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع . وكذلك ليس كل مالا يُملكه الإنسانُ لايحصلُ له من جهته منفعةٌ فإنَّ هذا كذبٌ فى الأمور الدينية والدنيوية .

وهذه النصوص النافية للظم تُثبتُ العدلَ فى الجزاء وأنه لا يُبْخَسُ عاملٌ عملَه وكذلك قوله فيمن عاقبهم :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ شَىْءٍ ﴾(٢٥)

وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾(٢٦)

بَيَّن أن عقاب المجرمين عدلا لذنوبهم لالأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب ، والحديث الذى فى السنن(٢٧) :

وبهذا وغيره احتج من قال من العلماء أنه يجوز اهداء ثواب العبادات المالية والبدنية الى موتى المسلمين كما هو مذهب أحمد وأبى حنيفة وطائفة من أصحاب مالك والشافعى .
فاذا أهدى لميت ثواب صيام أو صلاة أو قراءة جاز ذلك . وأكثر أصحاب مالك والشافعى يقولون انما يشرع ذلك فى العبادات المالية .
ومع هذا فلم يكن من عادة السلف اذا صلوا وصاموا وحجوا ، أو قرأوا القرآن يهدون ثواب ذلك لموتاهم المسلمين ولالخصوصهم ، بل كان عادتهم كما تقدم . فلاينبغى للناس أن يعدلوا عن طريق السلف فانه أفضل وأكمل . والله أعلم .
(قلت) وإذا كان ذلك كذلك فينبغى أن يكون أحسن الأقوال هو أن نقتصر على ماجاء مصرحا به فى السنة وهو أن الصدقة وغيرها من الأعمال المالية ينتفع به الميت ولاينتفع بالعبادات البدنية والله أعلم .

(٢٥) سورة هود(١١/١٠١) .

(٢٦) سورة الزخرف(٤٣/٧٦) .

(٢٧) أخرجه أبوداود فى «السنة»(٧٥/٥رقم٤٦٩٩) وابن ماجة فى «المقدمة»(١/٢٩-٣٠رقم٨٧) وأحمد فى «المسند»(١٨٢/٥، ١٨٥، ١٨٩) من حديث أبى بن كعب .

« لَوعَذَّبَ اللهُ أَهلَ سَمَاوَاتِهِ وأَهْلَ أَرْضِـهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيرُ ظَـالِمٍ لَهُمْ ، ولَـورَحِمَهُمْ لكانَتْ رَحمَتُـه لَهُم خيرًا من أَعْمَالِهم »

يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لالكونه بغير ذنب ، وهذا يُبَيّن أن من الظلم المنفىَّ عقوبةَ من لم يُذْنب وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيْدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾[٢٨]

يُبيّن أن هذا العقاب لم يكن ظلما لاستحقاقهم ذلك ، وأن الله لايريد الظلم . والأمر الذى لايمكن القدرةُ عليه لايُصلح أن يُمْدح الممدوح بعدم ارادته ؛ وانما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادرا عليها . فعُلم أن الله قادرٌ على مانَزَّه نفسه عنه من الظلم ، وأنه لايفعله وبذلك يصح قوله : « **إنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلى نَفْسى** » وان التحريم هو المنع وهذا لايجوز أن يكون فيم هو ممتنع لذاته ، فلايصلح أن يقال حرَّمتُ على نفسى أو منعتُ نفسى من خَلق مثلى أو جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من المحالات .

وأكثر مايقال فى تأويل ذلك مايكون معناه : إنى أخبرتُ عن نفسى بأن مالا يكون مقدورًا لايكون منّى . وهذا المعنى ممايتيقَّنُ المؤمنُ أنه ليس مُرادَ الربّ ، وأنه يجبُ تنزيهُ الله ورسوله عن إرادة مثل هذا المعنى الذى لايليقُ الخطابُ بمثله إذ هو مع كونه شبهَ التكرير وإيضاح الواضح ليس فيه مدحٌ ولاثناءٌ ، ولا مايستفيده

---

(٢٨) سورة غافر(٤٠/٣٠ـ٣١) .

المستمعُ ، فعلم أن الذى حَرَّمه على نفسه هو أمرٌ مقدورٌ عليه لكنه لا يفعله لأنه حَرَّمه على نفسه ، وهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن فعله ، مقدَّسٌ عنه . يُبيّن ذلك أن ماقاله الناس فى حدود الظلم يتناول هذا دون ذلك كقول بعضهم : الظلمُ : وضعُ الشىء فى غير موضعه كقولهم مَنْ أشبهَ أبَاه فماظلَم ؛ أى فماوضعَ الشبهَ غير موضعه . ومعلوم أن الله سبحانه حَكَمٌ عَدلٌ لا يضعُ الأشياءَ إلا مواضعها : ووضعُها غير مواضعها ليس ممتنعًا لذاته بل هو ممكنٌ لكنَّه لا يفعلُه لأنّه لا يريده بل يكرهُه ويُبغضه إذ قدحَرَّمه على نفسه .

وكذلك مَن قال : الظلم : إضرارُ غيرِ مستحقٍّ فإن اللهَ لا يعاقبُ أحدًا بغير حق .

وكذلك من قال : هو نقصُ الحق وذَكَر أن أصله النقصُ كقوله : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾[٢٩]

وأما من قال : التصرف فى ملك الغير فهذا ليس بمُطَّرد ولامنعكس ، فقد يتصرَّفُ الإنسان فى مِلك غيره بحقٍّ ، ولا يكون ظالما ؛ وقد يتصرَّفُ فى ملكه بغير حق فيكون ظالما . وظلمُ العبد نفسَه كثيرٌ فى القرآن .

وكذلك من قال : فعلُ المأمورِ خلاف ماأُمر به ونحو ذلك إن سُلِّمَ صحةُ مثل هذا الكلام فالله سبحانه قد كتبَ على نفسه الرحمةَ ، وحرَّم على نفسه الظلم ، فهو لا يفعل خلاف ما كتب ، ولا يفعل ما حَرَّم . وليس هذا الجواب موضع بسط هذه الأمور التى نَبَّهنا عليها فيه وانما نشير الى النكت .

---

(٢٩) سورة الكهف(٣٣/١٨) .

وبهذا يتبيَّنُ القولُ المتوسط وهو : أن الظُّلمَ الذى حَرَّمه اللهُ على نفسه مثل أن يترُكَ حسناتِ المُحسن فلا يَجزيه بها ، ويُعاقبَ البرىءَ على ما لم يَفعل من السيئات ، ويعاقبَ هذا بذنب غيره ، أو يحكُم بين الناس بغير القسط ، ونحو ذلك من الأفعال التى يُنَزِّه الرَّبُّ لقِسطه وعدله ، وهو قادرٌ عليها . وانما استحقَّ الحمدَ والثناءَ لأنه تركَ هذا الظلمَ وهو قادرٌ عليه ، وكما أنَّ الله مُنَزَّهٌ عن صفات النقص والعيب ، فهو أيضًا مُنزَّهٌ عن أفعال النقص والعيب .

وعلى قول الفريق الثانى ماثَمَّ فعلٌ يجبُ تنزيهُ الله عنه أصلا ، والكتابُ والسُّنَّةُ واجماعُ سلف الأمة وأئمتها يدُلُّ على خلاف ذلك ، ولكن متكلّمو الإثبات لَمَّا ناظروا متكلّمة النفى ألزمُوهم لوازمَ لم يَنفصلوا عنها إلا بمقابلة الباطل بالباطل ، وهذا مما عابَه الأئمَّةُ ، وذَمُّوه كما عاب الأوزاعىُّ والزبيدىُّ والثورىُّ وأحمد بن حنبل وغيرهم مقابلة القدرية بالغلو فى الإثبات ، وأَمَروا بالإعتصام بالكتاب والسنة ؛ وكما عابوا أيضًا على من قابل الجهميةَ نُفَاة الصفات بالغُلوّ فى الإثبات حتى دخل فى تمثيل الخالق بالمخلوق .

وقدبسطنا الكلام فى هذا وهذا ، وذكرنا كلام السلف والأئمة فى هذا فى غير هذا الموضع .

ولو قال قائلٌ : هذا مبنىٌّ على مسئلة تحسين العقل وتقبيحه فمن قال : العقل يُعلمُ به حسنُ الأفعال وقبحُها ، فإنه يُنَزِّه الرَّبَّ عن بعض الأفعال ؛ ومن قال : لايُعلمُ ذلك إلا بالسَّمع ، فإنه يُجَوِّزُ جميعَ الأفعال عليه لعدم النهى فى حقِّه .

قيل له : ليس بناءُ هذه على تلك بلازمٍ ، وبتقدير لزومها ففى تلك تفصيلٌ وتحقيقٌ قدبسطناه فى موضعه .

وذلك أنا فرضنا أنا نعلم بالعقل حسنَ بعض الأفعال وقبحَها لكنَّ العقلَ لا يقول : إنَّ الخالقَ كالمخلوق حتى يكون ماجعلَه حَسنًا لهذا أو قبيحًا له جعله حسنًا للآخر وقبيحًا له كما يفعل مثل ذلك القدرية لما بين الرب والعبد من الفروق الكثيرة .

وان فرضنا أن حسن الأفعال وقبحها لا يعلم إلا بالشرع ؛ فالشرع قددَلَّ على أن الله قدنَزَّه نفسَه عن أفعال وأحكام فلايجوزُ أن يفعلَها ، تارةً بخبره مُثنيًا على نفسه بأنه لا يفعلها ؛ وتارةً بخبره أنه حرَّمها على نفسه وهذا يُبيّن المسألة الثانية فنقول :

الناس لهم فى أفعال الله باعتبارِ مايصلحُ منه ويجوزُ ، ومالا يجوز منه ثلاثةُ أقوال : طرفان ووسط .

فالطرف الواحد طرفُ القدرية ، وهم الذين حَجَروا عليه أن يفعل إلا ماظَنُّوا بعقلهم أنه الجائزُ له ، حتى وضعوا له شريعةَ التعديلِ والتجويزِ فأوجبوا عليه بعقلهم أمورًا كثيرةً ، وحرَّمُوا عليه بعقلهم أُمورا كثيرة ، لا بمعنى أن العقل آمرٌ له وناهٍ ، فإنَّ هذا لايقوله عاقلٌ ، بل بمعنى أنَّ تلك الأفعالَ مماعُلِم بالعقل وجوبُها وتحريمُها ، ولكن أَدخَلُوا فى ذلك المنكراتِ مابَنَوْه على بدعتهم فى التكذيب بالقدر وتوابع ذلك .

والطرف الثانى طرفُ الغُلاة فى الرّد عليهم ، وهم الذين قالوا لايُنَزَّهُ الربُّ عن فعلٍ من الأفعال ، ولانعلم وجهَ امتناع الفعل منه إلا من جهة خبره أنه لايفعله ، المطابق لعلمه بأنه لايفعله . وهؤلاء منعوا حقيقةَ ماأخبر به من أنَّه كتبَ على نفسه الرحمةَ ، وحَرَّم على نفسه الظلمَ قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[30]

وفى الصحيحين[31] عن أبىهريرة رضىالله عنه عن النبى ﷺ قال :

« إنَّ اللهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ كتابًا فَهُو مَوضوعٌ عندَه فوقَ العَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِى تَغْلِبُ غَضَبِى »

ولم يعلم هؤلاء ان الخبر المجرد المطابق للعلم لايُبيّن وجه فعله وتركه ، إذ العلم يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هذا وأنه لايفعل هذا ليس فيه تعرُّضٌ لأنه كتب هذا على نفسه ، وحرَّم هذا على نفسه ، كما لوأخبر عن كائنٍ من كان أنه يفعل كذا ولايفعل كذا لم يكن فى هذا بيانٌ لكونه محمودًا ممدوحًا على فعل هذا وترك هذا ، ولا فى ذلك مايُبيّن قيام المقتضِى لهذا والمانع من هذا . فان الخبرَ المحضَ كاشفٌ عن المخبر عنه ليس فيه بيان مايدعو الى الفعل ولا الى الترك بخلاف قوله : ﴿ **كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ و « **حرَّمَ على نفسه الظُّلمَ** » .

فان التحريم مانعٌ من الفعل ، وكتابته على نفسه داعيةٌ الى الفعل ، وهذا بين واضح ، إذ ليس المرادُ بذلك مجردَ كتابته أنه يفعل

---

(٣٠) سورة الأنعام(٦/٥٤) .

(٣١) أخرجه البخارى فى بدأ الخلق(٤/٧٣) وفى التوحيد(٨/١٧١، ١٧٦، ١٨٧-١٨٨، ٢١٦) .
ومسلم فى التوبة(٣/٢١٠٧-٢١٠٨رقم١٤-١٦) من حديث أبىهريرة .
كما أخرجه أيضا الترمذى فى الدعوات(٥/٥٤٩رقم٣٥٤٣) .
وابن ماجة فى المقدمة (١/٦٧رقم١٨٩) وفى الزهد (٢/١٤٣٥رقم٤٢٩٥) .
وأحمد فى «المسند»(٢/٢٤٢، ٢٥٨، ٢٦٠، ٣١٣، ٣٥٨، ٣٨١، ٣٩٧، ٤٣٣، ٤٦٦) وابن أبىعاصم فى «السنة»(١/٢٧٠رقم٦٠٨-٦٠٩) وذكره الألبانى فى «الصحيحة»(١٦٢٩) .

وهو كتابة التقدير كما قدثبت فى الصحيح[٣٢] أنه قـدر مقـادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء فانه قال :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[٣٣]

ولـوأريـد كتـابـة التقـدير لكان قـدكتب على نفســه الغضب ، كاكتب على نفسه الرحمـة إذ كان المراد مجرد الخبر عمـاسيكون ، ولكان قدحرَّمَ على نفسه كل مالم يفعلـه من الإحسـان كاحرَّم الظلم ، وكما أن الفرق ثابت فى حقنا بين قوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾[٣٤]

وبين قوله : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ ﴾[٣٥] .

وقوله :

﴿ مَـاأَصَـابَ مِنْ مُّصِيبَــةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُم إلاَّ فِى كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا ﴾[٣٦]

وقوله :

« فيُبعَثُ اليـه المَلـكُ فيُـؤمَرُ بـأربـع كلمـاتٍ فيقـالُ لـه ٱكتُب رزقَه وأجلَه وعملَه وشقىٌّ أو سعيدٌ »[٣٧]

---

(٣٢) أخرجه مسلم فى القدر٢٠٤٤/٣٨رقم١٦) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص . وأخرجه الترمذى فى القدر(٤٥٨/٤رقم٢١٥٦) وأحمد فى «مسنده»(١٦٩/٢) دون الجملة الأخيرة .

(٣٣) سورة الأنعام(٥٤/٦) .

(٣٤) سورة البقرة(١٧٨/٢) .

(٣٥) سورة القمر(٥٢/٥٤) .

(٣٦) سورة الحديد(٢٢/٥٧) .

(٣٧) روى الأعمش عن زيـد بن وهب عن عبـدالله بن مسعود قـال حـدثنـا رسـولالله

فهكذا الفرق أيضا ثابت فى حق الله ، ونظير ماذكره من كتابته على نفسه كاتقدم قوله تعالى :

﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ** ﴾[٣٨]

وقول النبي ﷺ فى الحديث الصحيح[٣٩] :

« **يامُعاذُ أتَدرى ماحقُّ الله على عِباده ؟ قلتُ : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال : حقُّه عليهم أن يعبدُوه ولا يُشْركوا به شيئًا . أتدرى ماحقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال حقُّهم عليه ألا يُعَذِّبهم** »

ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق «إن أحدكم يُجمع خلقُه فى بطن أمّه أربعين يوما ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقيّ وسعيد . فوالذى لاإله غيره انأحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وانأحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

رواه مسلم فى القدر(٢٠٣٦/٣رقم١) ـ واللفظ له ـ والبخارى فى بدأ الخلق(٧٨/٤ـ٧٩) وفى الأنبياء(١٠٣/٤ـ١٠٤) وفى القدر(٢١٠/٧) وفى التوحيد(١٨٨/٨) .

وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان»(رقم١٨٤) وقداستوفينا تخريجه فيه فراجعه .

(٣٨) سورة الروم(٤٧/٣٠) .

(٣٩) حديث معاذ أخرجه البخارى فى الجهاد(٢١٦/٣) وفى اللباس(٦٨/٧) وفى الاستئذان(١٣٧/٧) وفى التوحيد(١٦٤/٨) .

ومسلم فى الإيمان(٥٨/١ـ٥٩رقم٤٨ـ٥١) .

والترمذى فى الإيمان(٢٦/٥ـ٢٧رقم٤٣٢٦) وابن ماجة فى «الزهد»(١٤٣٥/٢رقم٤٢٩٦) وأحمد فى «المسند»٢٢٨/٥٨، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٢) .

وأخرجه أحمد من مسند أنس بن مالك(٢٦٠/٣ـ٢٦١) .

ومنه قوله فى غير حديث :

« كان حقًا على الله أن يفعل به كذا »[٤٠]

فهذا الحق الذى عليه هو أحقَّه على نفسه بقوله ، ونظيره تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ماأخبر به من قَسمه ليفعلَنَّ وكلمته السابقة كقوله :

﴿ وَلَوْ لاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ ﴾[٤١]

وقوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾[٤٢]

﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِيْنَ ﴾[٤٣]

﴿ فَٱلَّذِيْنَ هَاجَرُوْا وَ أُخْرِجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوْذُوا فِى سَبِيْلِى وَقَاتَلُوْا وَقُتِلُوْا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ ﴾[٤٤]

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِيْنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٤٥]

ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمّنة معنى الإيجاب والمنع بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء : اليمينُ إمَّا أن تُوجب حقًّا أو منعا أو تصديقا أو تكذيبا .

وإذا كان معقولا فى الإنسان أنه يكون آمرا مأمورا كقوله :

---

(٤٠) مثل قوله ﷺ : من آمن بالله وبرسوله واقام الصلاة وصام رمضان كان حقًا على الله أن يُدخله الجنة ..... الحديث .

رواه البخارى فى الجهاد(٢٠٢/٣) وفى التوحيد(١٧٦/٨) والترمذى فى صفة الجنة(٦٧٥/٤رقم٢٥٣٠) وأحمد فى «المسند»(٣٣٥/٢،٣٣٩) من حديث أبى هريرة .

(٤١) سورة طه(١٢٩/٢٠) سورة يونس(١٩/١٠) وغير ذلك .

(٤٢) سورة الأعراف(١٨/٧) سورة هود(١١٩/١١) وغير ذلك .

(٤٣) سورة إبراهيم(١٣/١٤) .

(٤٤) سورة آل عمران(١٩٥/٣) .

(٤٥) سورة الأعراف(٦/٧) .

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ ﴾[٤٦]

وقوله :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾[٤٧]

مع أنَّ العبدَ له آمرٌ وناهٍ فوقه ؛ والربُّ الذى ليس فوقه أحدٌ لأَن يُتَصوَّر أن يكون هو الآمر الكاتب على نفسه الرحمة ، والناهى المحرِّم على نفسه الظلمَ أولى وأحرى . وكتابته على نفسه ذلك تستلزم ارادته لذلك ، ومحبَّته له ورضاه بذلك ؛ وتحريمه الظلمَ على نفسه يستلزم بُغضَه لذلك ، وكراهته له . وارادته ومحبَّته للفعل توجبُ وقوعَه منه ، وبغضه له وكراهته لأن يفعله يمنعُ وقوعه منه .

فأما مايحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر ففرقٌ بين فعلِه هو وبين ما هو مفعولٌ مخلوق له ، وليس فى مخلوقه ما هو ظلمٌ منه ، وان كان بالنسبة الى فاعله الذى هو الإنسان هو ظلمٌ ؟ كما أنَّ أفعال الإنسان هى بالنسبة اليه كذلك ؛ إذ هذه الأحكام هى للفاعل الذى قامَ به هذا الفعل كما أنَّ الصفاتِ هى صفاتٌ للموصوف الذى قامت به لاللخالق الذى خَلَقها وجعلها صفاتٍ .

والله تعالى خَلَقَ كل صانعٍ وصنعتَه كما جاء ذلك فى الحديث[٤٨] ، وهو خالق كل موصوف وصفته . ثم صفاتُ المخلوقات ليست صفاتٍ له كالألوان والطعوم والروائح لعدم قيام ذلك به ، وكذلك حركاتٌ

(٤٦) سورة يوسف(١٢/٥٣) .

(٤٧) سورة النازعات(٧٩/٤٠) .

(٤٨) أخرجه البخارى فى خلق أفعال العباد(١٧) والحاكم فى «المستدرك»(١/٣١) . ورواه البيهقى فى «شعب الإيمان»(١/٥٠١-٥٠٢رقم ١٨٧-بتحقيقنا) وانظر بقية التخريج فيه .

المخلوقاتِ ليست حركاتٍ له ولاأفعالا له بهذا الاعتبار لكونها مفعولاتٍ هو خَلَقها ؛ وبهذا الفرق تزولُ شُبهٌ كثيرة .

والأمر الذى كتبَه على نفسه يستحقُّ عليه الحمدَ والثناءَ ، وهو مُقدّسٌ عن ترك هذا الذى لو تركَ لكان تركُه نقصًا ، وكذلك الأمر الذى حرَّمَه على نفسه يستحقُّ الحمدَ والثناءَ على تركه ، وهو مُقدَّسٌ عن فعله الذى لو كان لاوجبَ نقصًا . وهذا كُلُّه بَيِّنٌ ـ ولله الحمد ـ عند الذين أُوتُوا العلمَ والإيمانَ ، وهو أيضا مُستقرٌّ فى قلوب عموم المؤمنين ؛ ولكنَّ القدريةَ شَبَّهوا على الناس بشُبههم ، فقابَلهم مَن قابلَهم بنوعٍ من الباطل كالكلام الذى كان السلفُ والأئمّةُ يذمُّونه .

وذلك أنَّ المعتزلة قالوا : قدحَصل الاتفاقُ على أنَّ اللهَ ليس بظالمٍ كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ ، والظالمُ مَن فعلَ الظلمَ ، كما أن العادلَ مَن فَعل العدلَ . هذا هو المعروفُ عند الناس مِن مُسمَّى هذا الاسم سمعًا وعقلاً . قالوا : ولوكانَ اللهُ خالقًا لأفعال العباد التى هى الظلمُ ، لكان ظالما .

فعارضهم هؤلاء بأن قالوا : ليس الظالمُ من فَعل الظلمَ ، بل الظالمُ مَن قام به الظلمُ .

وقال بعضهم : الظالمُ مَن اكتسبَ الظلمَ وكان منهيا عنه .

وقالَ بعضهم : الظالم مَن فعلَ مُحرَّما عليه أو مانُهى عنه .

ومنهم من قال : مَن فَعلَ الظلمَ لنفسه .

وهؤلاء يَعنُون أن يكونَ الناهى له والُمحرِّم عليه غيره الذى يجبُ عليه طاعته ، ولهذا كان تصوُّر الظلم منه ممتنعا عندهم لذاته كامتناع

أن يكون فوقه آمرٌ له وناهٍ . ويمتنعُ عند الطائفتين أن يعودَ الى الربّ من أفعاله حكمٌ لنفسه .

وهؤلاء لم يُمكنهم أن يُنازعوا أولئك فى أنَّ العادل من فعلَ العدلَ بل سلَّموا ذلك لهم وان نازعهم بعض الناس منازعةً عناديةً ، والذى يكشفُ تلبيس المعتزلة أن يقال لهم : الظالم والعادل الذى يعرفُه الناسُ وان كان فاعلا للظلم والعدل فذلك يأثم به أيضا ، ولا يعرف الناسُ من يُسمَّى ظالما ولم يقم به الفعل الذى به صار ظالما ، بل لا يعرفون ظالما إلا من قام به الفعل الذى فَعَله وبه صار ظالما ، وان كان فعله متعلقا بغيره ، وله مفعولٌ منفصلٌ عنه لكن لا يعرفون الظالم إلاَّ بأن يكون قدقام به ذلك فكونُكم أخذتُم فى حدّ الظالم انه مَن فعلَ الظلم ، وعَنَيتُم بذلك مَن فعله فى غيره فهذا تلبيسٌ ، وافسادٌ للشرع والعقل واللغة كما فعلتم فى مسمّى المتكلم حيث قلتم هو من فعل الكلام ولو فى غيره ، وجعلتم مَن أحدث كلاما منفصلا عنه قائما بغيره متكلّما وان لم يقم به هو كلامٌ أصلا ، وهذا من أعظم البهتان والقرمطة والسفسطة .

ولهذا ألزمهم السلف أن يكون ماأحدثه من الكلام فى الجمادات ، وكذلك أيضا ماخلقه فى الحيوانات [كلاما له] ، ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق . وانما قالت الجلود ﴿ **أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ** ﴾[49] ولم تقل نطق الله بذلك ، ولهذا قال مَن قال من السلف كسليمان بن داود الهاشمى[50] وغيره مامعناه أنه على هذا يكون الكلام

---

(٤٩) سورة حمٓ السجدة(٢١/٤١) .

(٥٠) سليمان بن داود بن على بن عبدالله بن العباس ، أبوأيوب الهاشمى العباس(م٢١٩هـ)

الـذى خلق فى فرعـون حتى قـال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَى ﴾[٥١] كالكـلام الذى خلق فى الشجرة حتى قالت ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لاإِلَـهَ إِلاَّ أَنَا ﴾[٥٢] فإمَّا أن يكون فرعون مُحقًّا أو تكون الشجرة كفرعون والى هـذا المعنى ينحو الاتحادية من الجهمية وينشدون :

وكُلُّ كلامٍ فى الوجود كلامُه ... سواءٌ علينا نثرُه ونظامُه

وهذا يستوعب أنواع الكفر . ولهذا كان من الأمر البيّن للخاصة والعامة أنَّ مَن قال : المتكلم لايقوم به كلامٌ أصلا فانَّ حقيقة قوله أنه ليس بمتكلم ، إذ ليس المتكلم إلا هـذا ، ولهـذا كان أوّلوهم يقولون : ليس بمتكلم ، ثم قالوا : هو متكلم بطريق المجاز ، وذلك لما استقرَّ فى الفطر أنَّ المتكلّم لابُدَّ أن يقوم به كلامٌ ، وان كان مع ذلك فاعلا له كما يقوم بالإنسان كلامُه وهو كاسبٌ له . أمَّا أن يُجعل مجرَّدُ احداث الكلام فى غيره كلامًا له فهذا هو الباطلُ .

وهكذا القول فى الظُّلم ، فهَبْ ان الظالم مَن فعلَ الظلمَ فليس هو مَن فعلَه فى غيره ، ولَم يقم به فعلٌ أصلا ، بل لابُدَّ أن يكونَ قدقامَ به فعلٌ ، وان كان متعدّيا الى غيره فهذا جواب .

ثم يقال لهم : الظلمُ فيه نسبةٌ واضافةٌ ؛ فهو ظلمٌ من الظالم بمعنى

من كبار الأئمة . قال الشافعى : مارأيت أعقل من هذين الرجلين : أحمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمى . وقال أحمد : كان يصلح للخلافة .
راجع «طبقات ابن سعد»(٣٤٣/٧) «الجرح والتعديل»(١١٣/٤) «تاريخ بغداد»(٣١/٩) «السير»(٦٢٥/١٠) .

(٥١) سورة النازعات(٢٤/٧٩) .

(٥٢) سورة طه(١٤/٢١) .

أنه عُدوانٌ وبَغىٌ منه ؛ وهو ظلمٌ للمظلوم بمعنى أنه بَغىٌ واعتداءٌ عليه . وأما مَن لم يكن مُتعدًّى عليه به ، ولا هو منه عدوانٌ على غيره . فهو فى حقّه ليس بظلم لامنه ولاله .

والله سبحانه إذا خلقَ أفعال العباد فذلك مِن جنس خلقه لصفاتِهم ، فهُم الموصوفون بذلك ، فهو سبحانه إذا جَعلَ بعضَ الأشياء أسودَ ، وبعضَها أبيضَ أو طويلاً أو قصيرًا ، أو متحرّكا أو ساكنًا ، أو عالما أو جاهلاً ، أو قادرا أو عاجزًا ، أو حيًّا أو ميّتًا ، أو مؤمنا أو كافرًا ، أو سعيدا أو شقيًّا ، أم ظالما أو مظلومًا ، كان ذلك المخلوقُ هو الموصوف بأنَّه الأبيض ، والأسود ، والطويل ، والقصير ، والحىُّ ، والميّت ، ، والظالم ، والمظلوم ، ونحو ذلك . والله سبحانه لا يوصف بشىء من ذلك . وإنما إحداثُه للفعل الذى هو ظلمٌ من شخص ، وظلمٌ لآخر بمنزلة احداثه الأكلَ والشربَ الذى هو أكلٌ من شخص ، وأكل لآخر . وليس هو بذلك آكلا ولامأكولا . ونظائر هذا كثيرة . وان كان فى خلق أفعال العباد لازمها أو متعديها حِكَمٌ بالغة ، كماله حكمةٌ بالغةٌ فى خلق صفاتهم وسائر المخلوقات ، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك وقدظهر بهذين الوجهين تدليسُ القدرية .

وأما تلك الحدودُ التى عورضوا بها فهى دعاوٍ ومخالفةٌ أيضا للمعلوم من الشرع واللغة والعقل ، أو مُشتملةٌ على نوع من الاجمال . فإنَّ قول القائل : الظالمُ مَن قام به الظلم يقتضى أنه لابُدَّ أن يقوم به ، لكن يقال له : وان لم يكن فاعلاً له آمرًا له لابد أن يكون فاعلا له مع ذلك ، فان أراد الأول كان اقتصاره على تفسير الظالم بمن قام به الظلم كاقتصار أولئك على تفسير الظالم فى فعل الظلم . والذى يعرفه الناس عامُّهم وخاصُّهم ان الظالم فاعلٌ للظلم ، وظلمُه فعلٌ قائمٌ به . وكُلٌّ من الفريقين جَحدَ بعض الحق .

وأما قولُهم مَن فعل محرَّما عليه أو منهيا عنه ونحو ذلك فالاطلاق صحيحٌ . لكن يقال قددَلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ على أنَّ الله تعالى كتبَ على نفسه الرحمةَ ، وكانَ حقًّا عليه نصرُ المؤمنين ، وكان حقًّا عليه أن يَجزى المطيعين ، وأنه حرَّمَ الظُّلمَ على نفسه ، فهو سبحانه الذى حَرَّم بنفسه على نفسه الظلمَ ، كما أنه هو الذى كتبَ بنفسه على نفسه الرحمةَ لا يُمكن أن يكون غيرُه مُحرِّما عليه أو مُوجبا عليه فضلا عن أن يعلم ذلك بعقل أو غيره . وإذا كان كذلك فهذا الظلمُ الذى حرَّمه على نفسه هو ظلمٌ بلاريب وهو أمر ممكن مقدور عليه ، وهو سبحانه يتركُه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره لأَنَّه عادلٌ ليس بظالم كمايترك عقوبة الأنبياء والمؤمنين وكما يترك أن يحمل البرىءَ ذنوبَ المعتدين .

* * * * *

فصـــل

قوله ﴿ وَجَعَلتُه بَينَكم مُحَرَّمًا فَلاتَظَالَمُوا ﴾

ينبغى أن يعرف أن هـذا الحـديث شريف القـدر عظيم المنزلـة ، ولهذا كان الإمام أحمد يقول : هو أشرف حديث لأهل الشام .

وكان أبـوادريس الخـولانى[1] إذا حـدث بـه جثـا على ركبتيـه . وراويه أبوذر الذى مـاأظَلَّت الخضراءُ ، ولاأَقلَّت الغبراءُ أصدقَ لهجـةً منه[2] . وهو من الأحاديث الالهية التى رواهـا الرسول ﷺ عن ربّـه

---

(١) أبوادريس الخولانى = عائذالله بن عبدالله(م٨٠هـ)
قاضى دمشق وعالمها وواعظها . من كبار التابعين . وُلد عام الفتح وأدرك عـددا من الصحابة
قال الذهبى : ليس هو بالمكثر ، لكن له جلالة عجيبة . وكان من فقهاء الشـام . أخرج له الجماعة
ترجمتـه فى «طبقـات ابن سعـد»(٤٤٨/٧) «المعرفـة والتـاريـخ»(٣١٩/٢) «الحلية»(١٢٢/٥-١٢٩) «التذكرة»(٥٣/١) «السير»(٢٧٢/٤-٢٧٦) «شذرات»(٨٨/١) .

(٢) روى هذا عن النبى ﷺ من طرق .
فرواه الترمذى(٦٦٩/٥رقم٣٨٠١) وابن ماجة(٥٥/١رقم١٥٦) وأحمد(١٦٣/٢، ١٧٥، ٢٢٣) وابن سعد فى «الطبقـات»(٢٢٨/٤) والحـاكم فى «المستـدرك»(٣٤٢/٣) من حـديث عبدالله بن عمرو بن العاص . وفى سنده عثمان بن عمير . قال الحافظ ابن حجر فى التقريب : ضعيف واختلط وكان يدلس ويغلو فى التشيع . من السابعة

وأخبر أنها من كلام الله تعالى وان لمتكن قرآنا . وقدجمع فى هذا الباب زاهر الشحامى[٣] وعبدالغنى المقدسى[٤] وأبوعبدالله المقدسى[٥]

وبقية رجاله ثقات . وذكره الألبانى فى «صحيح الجامع الصغير»(٥٤١٣) .
وأخرجه أحمد(٤٤٢/٦) وابن سعد(٢٢٨/٤) والحاكم(٣٤٢/٣) من حديث على بن زيد ــوهو ابن جدعانــ عن بلال بن أبىالدرداء عن أبيه عن النبى ﷺ مثله .
وعلى ضعيف .
وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد»(٣٢٩/٩) وقال : رواه البزار والطبرانى وفيه على ابن زيد ، وقدوثق وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات .
وأخرجه ابن سعد(٢٢٨/٤) من حديث أبىهريرة وسنده أيضا ضعيف .
وأخرجه الترمذى(٦٦٩/٥ـ٦٧٠رقم٣٨٠٢) وابن حبان(٥٦٠رقم٢٢٥٨) والحاكم(٣٤٢/٣) وابن سعد(٢٢٨/٤) من حديث أبىذر . ورجاله ثقات .
وذكره الألبانى فى «صحيح الجامع الصغير»(٥٤١٤) وقال : صحيح .

(٣) زاهر بن طاهر بن محمد ، أبوالقاسم ، الشحّامى ، النيسابورى ، المستملى(م٥٣٣هـ)
اعتنى به أبوه فسمّعه فى الخامسة وما بعدها واستجاز له . فروى الكثير ، واستملى على جماعة ، وخرّج وجمع ، وانتقى لنفسه السباعيات وأشياء تدل على اعتنائه بالفن . وكان مكثرا متيقظا .
قال الذهبى : ما هو بالماهر فى فن الحديث وهو واهٍ من قبل دينه .
ترجمته فى «السير»(٩/٢٠ـ١٣) «الميزان»(٦٤/٢) المستفاد من ذيل «تاريخبغداد»(١١٨ـ١٢٠) «لسان الميزان»(٤٧٠/٢) «شذرات الذهب»(١٠٢/٤) .
وذكر له بروكلمن فى «تاريخ الأدب العربى»(٢٤٦/٦ـالنسخة العربية) «كتاب الأحاديث الالهية» .

(٤) عبدالغنى بن عبدالواحد بن على بن سرور المقدسى ، تقىالدين ، أبومحمد ، الجمّاعيلى ، الدمشقى ، الحنبلى(م٦٠٠هـ)
الإمام الحافظ الكبير ، القدوة المتّبع للأثر ، عالم الحفاظ . جمع سيرته الحافظ ضياء الدين المقدسى فى جزءين .
سمع الكثير بدمشق والإسكندرية ، وبيت المقدس ، ومصر ، وبغداد ، وحرّان ، والموصل ، وهمذان .
وكتب الكثير . له مؤلفات نافعة منها «الأحكامالكبرى» و«الصغرى» و«الكمال فى

وغيرهم[٦] .

وهذا الحديث قدتضمَّن من قواعد الدين العظيمة فى العلوم والأعمال والأصول والفروع ؛ فان تلك الجملة الأولى وهى قوله ﴿ حَرَّمْتُ الظُّلمَ عَلى نَفْسِى ﴾ يتضمَّنُ جُلَّ مسائل الصفات والقدر ، إذا أُعْطِيتْ حَقَّها من التفسير وانما ذكرنا فيها ما لابد من التنبيه عليه من أوائل النكت الجامعة .

وأما هذه الجملة الثانية ، وهى قوله «**وجَعلتُه بينَكم مُحَرَّمًا فَلاتَظَالَموا**» فانها تجمعُ الدِّينَ كُلّه فإنَّ مانهى اللهُ عنه راجعٌ الى الظُّلم ، وكُلٌّ ماأمَر به راجعٌ الى العدل . قال تعالى :

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ**

أسماء الرجال» و«المصباح فى عيون الأحاديث الصحاح» . و«الأربعين من كلام رب العالمين» وغير ذلك .

ترجمته فى «التقييد»(١٣٨/٢) المستفاد من ذيل «تاريخ بغداد»(١٦٨-١٦٩) «السير»(٤٤٣/٢١-٤٧١) «التذكرة»(١٣٧٢/٤-١٣٨١) «ذيل طبقات الحنابلة»لابن رجب(٣٤/٢-٥) «شذرات»(٣٤٥/٤-٣٤٦) .

(٥) هو الضياء المقدسى ، أبوعبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن عبدالرحمن ، المقدسى ، الجماعيلى ، الحنبلى(م٦٤٣هـ)

صاحب التصانيف والرحلة الواسعة ، والمحقق المجود ، بقية السلف لم يزل ملازما للعلم والرواية الى أن مات . وتصانيفه نافعة مهذبة ، كان عظيم الشان فى الحفظ ومعرفة الرجال . وكان هو المشار اليه فى علم صحيح الحديث وسقيمه .

قال ابن الحاجب : شيخنا الضياء شيخ وقته ونسيج وحده علما وحفظا وثقة ودينا . من العلماء الربانيين وهو أكبر من أن يدلّ عليه مثلى .

ترجمته فى «السير»(١٢٦/٢٣-١٣٠) «التذكرة»(١٤٠٥/٤-١٤٠٦) «الوافى»(٦٥/٤-٦٦) «فوات الوفيات»لابن شاكر(٤٢٦/٣-٤٢٧) «ذيل طبقات الحنابلة»(٢٣٦/٢-٢٤٠) «شذرات»(٢٢٤/٥) .

(٦) فى الرسالة المنيرية «وغيرهما» .

وَالْمِيْزَانَ لِيَقُوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيْدَ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيْدٌ وَّمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَّنْصُرُه وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾[٧]

فأَخبرَ أنه أرسلَ الرُّسُلَ ، وأَنزلَ الكتابَ والميزانَ لأجل قيام الناس بالقسط ، وذكر أنه أنزلَ الحديدَ الذى به يَنصُرُ هذا الحقَّ ؛ فالكتابُ يَهدِى ، والسيفُ يَنْصُر ؛ وكفَى بربِّك هاديًا ونصيرًا . ولهذا كان قِوامُ الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد ، كما قال مَن قال من السلف : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : الأمراء والعلماء[٨] .

وقالوا فى قوله تعالى :

﴿ أَطِيْعُوا اللهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[٩]

أقوالا[١٠] تجمع العلماء والأمراء ولهذا نص الإمام أحمد وغيره على دخول الصنفين فى هذه الآية إذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله وكان نُوَّابُ رسول الله ﷺ فى حياته كعلىّ ، ومُعاذ ، وأبىموسى ، وعتاب بن أسيد ، وعثمان بن أبىالعاص ، وأمثالهم يَجمعون الصنفين . وكذلك خُلفاؤُه من بعده كأبىبكر وعمر وعثمان وعلىّ ونُوَّابهم .

ولهذا كانت السُّنَّةُ أن الذى يُصلى بالناس هو صاحب الكتاب ،

---

(٧) سورة الحديد(٢٥/٥٧) .

(٨) وروى مرفوعا عن النبى ﷺ أخرجه أبونعيم فى «الحلية»(٩٦/٤) وابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم»(١٨٤/١) وأورده الشيخ الألبانى فى «سلسلة الأحاديث الضعيفة»(رقم١٦) وقال : موضوع .

(٩) سورة النساء(٥٩/٤) .

(١٠) انظر الأقوال الواردة فى ذلك فى «تفسير ابن الجوزى»(١١٦/٢) و«الدر المنثور»(٥٧٤/٢-٥٧٦) .

والذى يقوم بالجهاد هو صاحب الجديد ، الى أن تَفَرَّقَ الأمرُ بعد ذلك . فاذا تفرَّقَ صارَ كُلُّ مَن قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفُجّار يجبُ أن يُطاع فيما أمَرَ به من طاعة الله فى ذلك ؛ وكذلك مَن قام بجمع الأموال وقسمها يجبُ أن يُطاع فيما يأمر به من طاعة الله فى ذلك ؛ وكذلك مَن قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يُصدَّق ويطاع فيما أخبر به من الصدق فى ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله فى ذلك .

والمقصود هنا أن المقصود بذلك كله هو أن يقومَ الناسُ بالقسط ، ولهذا لما كانَ المشركونَ يُحرِّمون أشياءَ ماأنزلَ اللهُ بها من سلطان ، ويأمرون بأشياء ماأنزلَ اللهُ بها من سلطان ، أنزل الله فى سورة الأنعام والأعراف وغيرهما يذمُّهم على ذلك ، وذكَرَ ماأمرَ به هو وماحَرَّمه هو فقال :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّىْ بِالْقِسْطِ وَأَقِيْمُوْا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَّادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ﴾[١١]

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوْا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَّأَنْ تَقُوْلُوْا عَلَى اللهِ مَا لاَتَعْلَمُوْنَ ﴾[١٢]

وهذه الآية تجمعُ أنواعَ المحرَّمات كما قدبَيَّنَّاه فى غير هذا الموضع ، وتلك الآية تجمعُ أنواعَ الواجبات كما بَيَّنَّاه أيضا ، وقوله :

﴿ أَمَرَ رَبِّىْ بِالْقِسْطِ وَأَقِيْمُوْا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ

---

(١١) سورة الأعراف(٢٩/٧) .

(١٢) نفس السورة(٣٣/٧) .

﴿ وَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ﴾ (سورةالأعراف٧/٢٩) .

أمر مع القسط بالتوحيد الذى هو عبادةُ الله وحدَه لاشريكَ لـه . وهذا أصل الدين وضدُّه هو الذنب الذى لايُغفر قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَيَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِـكَ لِمَنْ يَّشَاءُ ﴾[١٣]

وهو الـدينُ الـذى أمرَ الله بـه جميعَ الرسل وأرسلهم بـه الى جميـع الأمم . قال تعالى :

﴿ وَمَاأَرْسَلْنَـا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَّسُوْلٍ إِلاَّ نُوْحِيْ إِلَيْـهِ أَنَّـهُ لاَإِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ ﴾[١٤]

وقال تعالى :

﴿ وَسْئَـلْ مَنْ أَرْسَلْنَـا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رُّسُلِنَـا أَجَعَلْنَـا مِنْ دُوْنِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُّعْبَدُوْنَ ﴾ (سورةالزخرف٤٣/٤٥) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُوْلاً أَنِاعْبُدُوْا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتَ ﴾[١٥]

وقال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَاوَصَّى بِـهِ نُوْحًـا وَّالَّـذِيْ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ وَمَـاوَصَّيْنَـا بِـهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وعِيْسَى أَنْأَقِيْمُوْا الدِّيْنَ وَلاَتَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ ﴾[١٦]

---

(١٣) سورة النساء(٤/٤٨،١١٦) .

(١٤) سورة الأنبياء(٢١/٢٥) .

(١٥) سورة النحل(١٦/٣٦) .

(١٦) سورة الشورى(٤٢/١٣) .

وقال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوْا صَالِحًا إِنِّىْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ عَلِيْمٌ، وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَّاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوْنِ ﴾[١٧]

ولهذا ترجم البخارى فى صحيحه « باب ماجاء فى ان دين الأنبياء واحد[١٨] » وذكر الحديث الصحيح فى ذلك وهو الاسلام العام الذى اتفق عليه جميع النبيين قال نوح عليه السلام :

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴾[١٩]

وقال تعالى فى قصة ابراهيم :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيْمُ بَنِيْهِ وَيَعْقُوْبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّيْنَ فَلَاتَمُوْتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴾[٢٠]

وقال موسى :

﴿ يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِيْنَ ﴾[٢١]

---

(١٧) سورة المؤمنون(٢٣/٥١ـ٥٢) .

(١٨) لم أجد هذا الباب فى نسخة الصحيح المطبوعة . وقد روى البخارى فى الأنبياء(٤/١٥٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد» .
ولم يشر الحافظ ابن حجر فى شرحه الى الباب الذى ذكره المؤلف .
والحديث أخرجه مسلم فى الفضائل(٢/١٨٣٧رقم١٤٥) .

(١٩) سورة يونس(١٠/٧٢) .

(٢٠) سورة البقرة(٢/١٣١ـ١٣٢) .

(٢١) سورة يونس(١٠/٨٤) .

وقال تعالى :

﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴾[٢٢]

وقال فى قصة بلقيس :

رَبِّ إِنِّىْ ظَلَمْتُ نَفْسِىْ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾[٢٣]

وقال :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيْهَا هُدًى وَّنُوْرٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّوْنَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوْا لِلَّذِيْنَ هَادُوْا ﴾[٢٤]

وهذا التوحيد الذى هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجا فى الصحيحين[٢٥] عن عبدالله بن مسعود قال لمانزلت هذه الآية :

﴿ اَلَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾[٢٦]

شقَّ ذلك على أصحاب النبى ﷺ وقالوا : أيُّنا لَم يَظلم نفسه ؟ فقال : ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ ﴾ .

---

(٢٢) سورة آل عمران(٣/٥٢) .

(٢٣) سورة النمل(٢٧/٤٤) .

(٢٤) سورة المائدة(٥/٤٤) .

(٢٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء(٤/١١٢،١٣٧) وفى التفسير(٦/٢٠) وفى استتابة المرتدين(٨/٤٨) ومسلم فى الإيمان(١/١١٤رقم١٩٧) .
وأخرجه أيضا الترمذى فى التفسير(٥/٢٦٢رقم٣٠٦٧) وأحمد فى المسند(١/٣٧٨، ٤٢٤، ٤٤٤) والطيالسى فى «المسند»(٣٥) وابن جرير فى «تفسيره»(٧/٢٥٥-٢٥٦) .

(٢٦) سورة الأنعام(٦/٨٣) .

وفى الصحيحين[٢٧] عن ابن مسعود قال :

« قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . قلت : ثم أىٌّ ؟ قال : ثم أن تَقتُل ولدَك خشيةَ أن يطعَم معَك . قلت : ثُمّ أىٌّ ؟ قال : أن تُزانى حليلةَ جارك »

فأنزل الله تصديق ذلك :

﴿ وَالَّذِيْنَ لاَيَدْعُوْنَ مَعَ اللهِ اِلٰهًا آخَرَ وَلاَيَقْتُلُوْنَ النَّفْسَ اَلَّتِىْ حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَيَزْنُوْنَ ﴾[٢٨] الآية .

وقدجاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعا :

« الظُّلمُ ثلاثةُ دَوَاوِين : فَدِيوانٌ لايَغفرُ اللهُ منه شيئًّا ، وديوانٌ لايتركُ اللهُ منه شيئًّا ، وديوانٌ لايَعبأُ اللهُ به شيئًّا »[٢٩]

فأمَّا الديوان الذى لايغفرُ الله منه شيئًّا فهو الشرك ، فان الله لايغفر أن يشرك به ؛ وأما الديوان الذى لايتركُ الله منه شيئًّا فهو ظلم العِباد بعضهم بعضا ، فإنَّ الله لابُدَّ أن يُنصف المظلوم من الظالم ؛

---

(٢٧) أخرجه البخارى فى التفسير(١٤٨/٥،١٤/٦) وفى الأدب(٧٥/٧) وفى الحدود(٢١/٨) وفى الديات(٣٤/٨) وفى التوحيد(٢٠٧/٨،٢١٠-٢١١) ومسلم فى الإيمان(٩٠/١-٩١رقم١٤١،١٤٢) .
وأخرجه أيضا الحميدى فى «مسنده»(٥٧/١رقم١٠٣) والطيالسى(ص٣٥) وأحمد(٣٨٠/١، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢، ٤٦٤) وأبوداود فى الطلاق(٧٣٢/٢رقم٢٣١٠) والترمذى فى التفسير(٣٣٧/٥رقم٣١٨٣) والنسائى فى تحريم الدم(٨٩/٧-٩٠) والطبرانى فى «الكبير»(٢٥/١٠رقم٩٨١١؛٢٨/١٠-٢٩رقم٩٨١٩-٩٨٢١) .

(٢٨) سورة الفرقان(٦٨/٢٥) .

(٢٩) رواه أحمد فى «المسند»(٢٤٠/٦) من حديث عائشة

وأمّا الديوان الذى لايَعبأ الله به شيئًا فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه .

أى مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق ، فإن شاء عَذَّب هذا الظالمَ لنفسه ، وإن شاءَ غفر له .

وقدبسطنا الكلام فى هذه الأبواب الشريفة والأصول الجامعة فى القواعد ، وبَيَّنَّا أنواع الظلم ، وبَيَّنَّا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم ومسمى الشرك جليله ودقيقه فقد جاء فى الحديث :

« الشِّرْكُ فى هذه الأُمَّةِ أَخْفَى مِن دَبِيبِ النَّمْلِ »[٣٠]

وروى[٣١] أن هذه الآية نزلت فى أهل الرياء :

وأورده الهيثمى فى «المجمع»(٣٤٨/١٠) وقال : فيه صدقة بن موسى وقدضعفه الجمهور . وقال مسلم بن ابراهيم حدثنا صدقة بن موسى وكان صدوقا . وبقية رجاله ثقات .

وجاء نحوه من حديث أنس أخرجه الطيالسى فى «مسنده»(٢٨٢) ومن طريقه أبونعيم فى «الحلية»(٣٠٩/٦)

وذكره الهيثمى فى «المجمع»(٣٤٨/١٠) وقال رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيرى ولمأعرفه وبقية رجاله ثقات .

وقال الألبانى : حسن لشاهده . راجع «الصحيحة»(١٩٢٧) .

(٣٠) روى من حديث أبىبكر أخرجه أبو يعلى فى «مسنده»(٦٠/١رقم٥٨) وأبونعيم فى «الحلية»(١١٢/٧)

ومن حديث عائشة أخرجه الحاكم(٢٩١/٢) وأبونعيم فى «الحلية»(٢٥٣/٩)

ومن حديث أبىموسى أخرجه أحمد(٤٠٣/٤) وأورده الهيثمى فى «المجمع»(٢٢٣/١٠) وقال رواه أحمد والطبرانى فى «الكبير والأوسط» ورجال أحمد رجال الصحيح .

وأخرجه ابن أبىشيبة فى «المصنف»(٢٣٨/١٠)

ومن حديث ابن عباس أخرجه أبونعيم فى «الحلية»(٣٦/٣-٣٧)

ووضعه الألبانى فى «صحيح الجامع الصغير»(٣٦٢٤) .

(٣١) انظر «اسباب النزول»للواحدى(٣٠٨) .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَّلاَيُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[٣٢]

وكان شداد بن أوس يقول : يابقايا العرب ! يابقايا العرب ! انما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية[٣٣] .

قال أبوداود السجستانى صاحب السنن : الشهوة الخفية : حب الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغى والظلم كما أن الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ **الشرك** ، **والشرك** أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح ولهذا **قال تعالى :**

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَّسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِيْ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ ﴾[٣٤] الى أن ختم السورة بقوله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيْنَ لاَيُرِيْدُوْنَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَ لاَفَسَادًا ﴾[٣٥]

وقال :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِىْ إِسْرَائِيْلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيْرًا ﴾[٣٦]

---

(٣٢) سورة الكهف(١٨/١١٠) .

(٣٣) وروى أبونعيم فى «الحلية»(٢٦٨/١) عن محمود بن الربيع ان شداد بن أوس قال ـــلما حضرته الوفاتـــ ان أخوف ماأخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية . وروى نحوه عن شداد عن النبى ﷺ . أخرجه أحمد فى «المسند»(١٢٥/٤ـ١٢٦) وأبونعيم(٢٦٩/١) .

(٣٤) سورة القصص(٢٨/٤) .

(٣٥) نفس السورة(٢٨/٨٣) .

(٣٦) سورة الإسراء(١٧/٤) .

وقال :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[٣٧]

وقالت الملائكة :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾[٣٨]

فاصل الصلاح التوحيد والإيمان ، وأصل الفساد الشرك والكفر كما قال عن المنافقين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَيَشْعُرُونَ ﴾[٣٩]

وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذى يرادُ منه ، ولهذا يقول الفقهاء : العقد الصحيح ماترتَّبَ عليه أثرُه ، وحصلَ به مقصودُه ؛ والفاسدُ مالم يترتَّب عليه أثرُه ولم يحصل به مقصودٌ ، والصحيح المقابل للفاسد فى اصطلاحهم هو الصالح ، وكان يكثر فى كلام السلف : «هذا لايصلُح» أو «يصلح» كما كثر فى كلام المتأخرين «يصحُّ ولا يصح» . والله تعالى انما خلق الإنسان لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح :

« ألا إنَّ فِي الجَسدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ لها سائرُ

---

(٣٧) سورة المائدة(٣٢/٥) .

(٣٨) سورة البقرة(٣٠/٢) .

(٣٩) نفس السورة(١١/٢،١٢) .

الجَسد ، وإذا فَسدَتْ فسدَ لهَا سائرُ الجَسد . ألا وَهِى القَلبُ »[٤٠]

وصلاح القلب فى أن يحصل له وبه المقصودُ الذى خُلق له من معرفة الله ومحبّته وتعظيمه ؛ وفساده فى ضد ذلك فلاصلاحَ للقلوب بدون ذلك قطُّ .

والقلبُ له قُوّتان : العلم والقصد ، كما أن للبدن الحس والحركة الارادية ،فكما أنه متى خرجت قُوى الحسّ والحركة عن الحال الفطرى الطبيعى فسدَت ، فاذا خرج القلبُ عن الحال الفطرية التى يُولد عليها كُلُّ مولود ــ وهى أن يكون مُقرًّا لربّه ، مُريدا له ، فيكون هو منتهى قصده وارادته ، وذلك هى العبادة ، إذ العبادة كمال الحبّ بكمال الذُّلّ ــ فمتى لم تكن حركةُ القلب ووجهه وارادته لله تعالى كان فاسدًا إمَّا بأن يكون مُعرضا عن الله وعن ذكره ، غافلا عن ذلك مع تكذيب ، أو بدون تكذيب ؛ أو بأن يكون له ذكرٌ وشعورٌ ولكن قصده وارادتُه غيرَه لكون الذكر ضعيفا لم يَجتذب القلبَ الى ارادة الله ومحبته وعبادته ، والا فمتى قَوى علمُ القلب وذكره ، أوجب قصده وعلمه قال تعالى :

﴿ فَأعْرِضْ عَنْ مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ، وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ ﴾[٤١]

فأمر نبيه بأن يُعرض عمن كان مُعرضا عن ذكر الله ، ولم يكن له

---

(٤٠) جزء من حديث النعمان بن بشير المشهور الذى أوله «الحلال بيّن والحرام بيّن ...» .
أخرجه البخارى فى الإيمان(١٩/١) ومسلم فى المساقاة(١٢١٩/٢ـ١٢٢٠رقم١٠٧)
وأخرجه أحمد فى «المسند»(٢٧٠/٤،٢٧٤) .

(٤١) سورة النجم(٢٩/٥٣) .

مراد إلا مايكون فى الدنيا ، وهذه حالُ مَن فَسد قلبُه ولم يذكر ربَّه ، ولم يُنِب اليه فيريد وجهه ويخلص لـه الـدين ثم قـال ﴿ **ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ فأخبر أنهم لم يحصل لهم علمٌ فوق مايكون فى الـدنيـا فهى أكبر هَمّهم ، ومَبلغ علمهم .

وأما المؤمن فـأكبر همـه هو الله واليـه انتهى علمـه وذكره . وهـذا الآن باب واسع عظيم قدتكلمنا عليه فى مواضعه .

وإذا كان التوحيد أصلَ صلاح الناس ، والإشراكُ أصلَ فسـادهم ، والقسـطُ مقرون بـالتوحيـد إذ التوحيـد أصـل العـدل ، وارادة العُلوّ مقرونـةٌ بـالفسـاد إذ هـو أصـل الظلم فهـذا مـع هـذا وهـذا مـع هـذا كالمزوزَين فى قَرَن . فـالتوحيـد ومـا يتبعـه من الحسنـات هو صـلاحٌ وعدلٌ ، ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بـالواجبـات وهو البرُّ وهو العـدل ، والـذنوب التى فيهـا تفريـط أو عـدوان فى حقوق الله تعـالى وحقوق عباده هى فساد وظلم ولهذا سمى قُطّـاع الطريق مفسـدين ، وكانت عقوبتهم حقًّا لله تعالى لاجتماع الوصفين ، والـذى يريـد العُلوّ على غيره من أبناء جنسه هو ظالمٌ له باغٍ إذ ليس كونك عـاليـا عليـه باولى من كونه عاليا عليك ، وكِلاكما[42] من جنس واحـد . فـالقسـط والعدل أن يكونوا إخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك .

والتوحيـد وان كان أصـل الصـلاح فهـو أعظم العـدل ولهـذا قـال تعالى :

﴿ **قُلْ يَـاأَهْلَ الْكِتَـابِ تَعَـالَـوْا إِلَى كَلِمَـةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَـا وبَيْنَكُمْ اَلاَّ نَعْبُدَ اِلاَّ اللهَ وَلاَنُشْرِكَ بِـهِ شَيْئًـا وَّلاَيَتَّخِـذَ بَعْضُنَـا بَعْضًـا اَرْبَـابًـا مِنْ دُوْنِ اللهِ فَـاِنْ تَـوَلَّـوْا فَقُـوْلُـوْا**

(٤٢) فى المنيرية «كلاهما» .

اشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴾[٤٣]

ولهذا كان تخصيصه بالذكر فى مثل قوله :
﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّىْ بِالْقِسْطِ وأَقِيْمُوْا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَّادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ﴾[٤٤]

لايمنع أن يكون داخلا فى القسط ، كما أن ذكر العمل الصالح بعد الإيمان لايمنع أن يكون داخلا فى الإيمان كما فى قوله :
﴿ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَالَ ﴾[٤٥] و ﴿ مِنَ النَّبِيِّنَ مِيْثَاقَهُمْ وَمِنْكَ ﴾[٤٦]

هذا إذا قيل إن اسم الإيمان يتناوله سواء قيل انه فى مثل هذا يكون داخلا فى الأول فيكون مذكورا مَرَّتين ، أو قيل بل عطفه عليه يقتضى أنه ليس داخلا فيه هنا وان كان داخلا فيه منفردا كما قيل مثل ذلك فى لفظ الفقراء والمساكين وأمثال ذلك مماتتنوع دلالته بالإفراد والإقتران .

لكن المقصود ان كل خير فهو داخلٌ فى القسط والعدل ، وكل شرٍّ فهو داخل فى الظلم ، ولهذا كان العدلُ أمرًا واجبًا فى كل شيء وعلى كل أحد ؛ والظلمُ مُحرَّما فى كل شيء ولكل أحد ، فلايحلُّ ظلمُ أحد أصلا سواء كان مسلما أو كافرا ، أو كان ظالما . بل الظلمُ انما يباح ويجب فيه العدل عليه أيضا قال تعالى :
﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا كُوْنُوْا قَوَّامِيْنَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ

(٤٣) سورة آل عمران(٣/٦٤) .
(٤٤) سورة الأعراف(٧/٢٩) .
(٤٥) سورة البقرة(٢/٩٨) .
(٤٦) سورة الأحزاب(٣٣/٧) .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ ﴾[47] أى يحملنكم شنآن أى بغض قوم وهم الكفار على عدم العدل ﴿ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾

وقال تعالى :
﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾[48]

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾[49] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[50] .

وقد دل على هذا قوله فى الحديث :
« ياعِبَادِى إنِّى حَرَّمتُ الظُّلْمَ على نَفسى وجعلتُه بينكم مُحَرَّما فلا تَظَالموا »

فان هذا خطاب لجميع العباد أن لايظلم أحد أحدا ، وأمر العالم فى الشريعة مبنىٌّ على هذا ، وهو العدل فى الدماء والأموال والابضاع والانساب والأعراض ، ولهذا جاءت السنة بالقصاص فى ذلك ومقابلة العادى بمثل فعله لكن المماثلة قد يكون علمها أو عملها معتدرا ومتعسرا ، ولهذا يكون الواجبُ مايكون أقرب اليها بحسب الإمكان ويقال هذا أمثل ، وهذا أشبه ، وهذه الطريقة المثلى لما كان أمثل بما

---

(47) سورة المائدة(8/5) .

(48) سورة البقرة(194/2) .

(49) سورة النحل(126/16) .

(50) سورة الشورى(40/42) .

هو العدل والحق فى نفس الأمر إذ ذاك معجوز عنه ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَنُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[51]

فذكر أنه لم يُكلّف نفسا إلا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط لأنَّ الكيل لابُدَّ له أن يفضل أحد المكيلين على الآخر ولو بحبّة أو حبَّات ، وكذلك التفاضل فى الميزان قد يحصل بشىء يسير لا يمكن الاحتراز منه فقال تعالى ﴿ لاَنُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ .

ولهذا كان القصاص مشروعا اذا أمكن استيفاؤه من غير جنف كالاقتصاص فى الجروح التى تنتهى الى عظم ، وفى الأعضاء التى تنتهى الى مفصل ؛ فاذا كان الجنف واقعا فى الاستيفاء عُدل الى بدله وهو الدية ، لأنه أشبه بالعدل من اتلاف زيادة فى المقتصّ منه . وهذه حُجَّة من رأى من الفقهاء أنه لاقوَد إلا بالسيف فى العنق قال : لأن القتل بغير السيف وفى غير العنق لانعلم فيه المماثلة بل قد يكون التحريق والتغريق والتوسيط ونحو ذلك أشد إيلاما ، لكن الذين قالوا : يُفعلُ به مثلَ مافعلَ قولُهم أقربُ الى العدل فانه مع تحرّى التسوية بين الفعلين يكون العبد قد فعل مايقدر عليه من العدل ، وماحصل من تفاوت الالم خارجٌ عن قدرته ، وأما اذا قطع يدَيه ورجلَيه ثم وسطَه ، فقُوبل ذلك بضرب عنقه بالسيف ؛ أو رضَّ رأسه بين حجرَين فضُرب بالسيف فهنا قد تيقَّنَّا عدم المعادلة والمماثلة ، وكنا قد فعلنا ماتَيَقَّنَّا انتفاء المماثلة فيه ، وأنه يتعذر معه وجودها بخلاف الأول فان المماثلة قد تقع إذ التفاوت فيه غير متيقن .

---

(٥١) سورة الأنعام(٦/١٥٣) .

وكذلك القصاص فى الضربة واللطمة ونحو ذلك عَدلَ عنه طائفةٌ من الفقهاء الى التعزير لعدم امكان المماثلة فيه ، والذى عليه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهو منصوص أحمد : ماجاءت به سنة رسول الله ﷺ من ثبوت القصاص به لأن ذلك أقرب الى العدل والمماثلة فانا إذا تحرَّينا أن نفعل به من جنس فعله ، ونقرب القدر من القدر كان هذا أمثل من أن نأتى بجنس من العقوبة تخالف عقوبته جنسا وقدرا وصفة . وهذا النظر أيضا فى ضمان الحيوان والعقار ونحو ذلك بمثله تقريبا أو بالقيمة كما نص أحمد على ذلك فى مواضع ضمان الحيوان وغيره ؛ ونص عليه الشافعى فيمن خَرَّب حائط غيره أنه يبنيه كما كان ، وبهذا قضى سليمان عليه السلام فى حكومة الحرث التى حكم فيها هو وأبوه كما قدبُيّن ذلك فى موضعه .

فجميع هذه الأبواب المقصود للشريعة فيها تحرّى العدل بحسب الإمكان ، وهو مقصود العلماء لكن أفهمهم مَن قال بما هو أشبه بالعدل فى نفس الأمر وان كان كل منهم قدأُوتى علما وحكما لأنه هو الذى أنزل الله به الكُتب ، وأرسل به الرسل ؛ وضده الظلم كما قال سبحانه :

« يَاعِبَادِى ! إنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَتَظَالَمُوْا »

ولما كان العدل لابد أن يتقدمه علمٌ إذ مَن لا يعلم لا يدرى ما العدل ، والإنسان ظالمٌ جاهلٌ إلا مَن تاب الله عليه ، فصار عالما عادلا ؛ صار الناس من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف : العالم العادل[٥٢] ، والجاهل ، والظالم فهذان من أهل النار كما قال النبى ﷺ :

(٥٢) فى مجموع الفتاوى «العالم الجائر» وهو خطأ .

« القُضَاةُ ثَلاثَةٌ : قَاضِيانِ فى النَّارِ ، وقَاضٍ فى الجَنَّةِ :
رجُلٌ عَلِمَ الحَقَّ ، وقَضَى بِهِ فهُو فى الجَنَّة ، ورَجُلٌ قَضَى
للنَّاس عَلَى جهل فهو فى النَّار ، ورَجُلٌ عَلِم الحَقَّ وقَضَى
بِخِلافِه فهو فى النَّارِ »[٥٣]

فهذان القسمان كما قال :

« مَن قَالَ فى القُرآن بِرَأيِه فَأَصَابَ فَقَد أَخْطَأَ »[٥٤]

« ومَن قَالَ فى القُرْآن بِرَأيِه فأَخْطَأَ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه مِن
النَّارِ »[٥٥]

وكل من حكم بين اثنين فهو قاضٍ سواء كان صاحبَ حرب ، أو متولى ديوان ، أو منتصبا للاحتساب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى الذى يَحكُم بين الصبيان فى الخطوط فإنَّ الصحابةَ كانوا يَعُدُّونه من الحُكَّام ، ولما كان الحُكّام مأمورِين بالعدل بالعلم ، وكان

(٥٣) أخرجه أبوداود فى الأقضية(٥/٤رقم٣٥٧٣) والترمذى(٦١٣/٣رقم١٣٢٢) وابن ماجة فى الأحكام(٧٧٦/٢رقم٢٣١٥) والطبرانى فى «الكبير»(رقم١١٥٤ـ١١٥٦) والحاكم(٩٠/٤) والبيهقى فى «السنن»(١١٦/١٠) من حديث بريدة بن الحصيب . وصححه الألبانى . راجع «إرواء الغليل»(٢٣٥/٨ـ٢٣٦رقم٢٦١٤)
وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الطبرانى فى «الكبير» وقال الهيثمى فى «المجمع»(١٩٣/٤) رجاله ثقات .

(٥٤) أخرجه أبوداود فى العلم(٦٣/٤رقم٣٦٥٢) والترمذى فى التفسير(٢٠٠/٥رقم٢٩٥٢) وأبو يعلى فى «المسند»(٩٠/٣رقم١٥٢٠) وابن جرير فى «تفسيره»(٣٤/١) والطبرانى فى «الكبير»(رقم١٦٥١) والبغوى فى «شرح السنة»(٢٥٩/٢) من حديث جندب . راجع «ضعيف الجامع الصغير»(٥٧٤٨) .

(٥٥) أخرجه الترمذى فى التفسير١٩٩/٥٨رقم٢٩٥١) وأحمد فى «المسند»(٢٣٣/١، ٢٦٩، ٣٢٢، ٣٢٧) والبغوى فى «شرح السنة»(٢٥٧/١ـ٢٥٨) عن ابن عباس ولفظهم «من قال فى القرآن بغير علم ــ وفى لفظ برأيه ــ فليتبوأ مقعده من النار» وليس فيه» فأخطأ .

المفروض انما هو بما يبلغه جهد الرجل قال النبي ﷺ :

« إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهَ أَجْرٌ »(٥٦)

* * * * *

(٥٦) صحيح من حديث عمرو بن العاص وأبىهريرة .
أخرجه البخارى فى الاعتصام(١٥٧/٨) ومسلم فى الأقضية(١٣٤٢/٢رقم١٥) وأبوداود فى الأقضية أيضا(٦/٤رقم٣٥٧٤) والترمذى فى الأحكام(٦١٥/٣رقم١٣٢٦) والنسائى فى آداب القضاة(٢٢٤/٨) وابن ماجة فى الأحكام(٧٧٦/٢رقم٢٣١٤) وأحمد فى «المسند»(١٩٨/٤، ٢٠٤) .

فصـــل

فلما ذكر فى أول الحديث ماأوجبه من العـدل ، وحَرَّمـه من الظلم على نفسه وعلى عباده ذكر بعد ذلك احسانَه الى عباده مع غناه عنهم وفقرهم اليـه ، وأنهم لايقـدرون على جلب منفعـة لأنفسهم ، ولادفع مضرَّة إلا أن يكون هو المُيَسّر لذلـك ، وأمر العبـاد أن يسـألوه ذلـك ، وأخبر أنهم لايقدرون على نفعـه ولاضرّه مع عِظم من يُوصل اليهم من النعماء ، ويدفع عنهم من البلاء .

وجلبُ المنفعة ودفع المضرَّة اما أن يكون فى الـدين أو فى الـدنيـا ، فصارت أربعـة أقسـام : الهـدايـة والمغفرة : وهمـا جلب المنفعـة ودفع المضرة فى الدين ؛ والطعام والكسوة : وهما جلب المنفعـة ودفع المضرة فى الدنيا ؛ وإن شئتَ قلتَ : الهدايـة والمغفرة يتعلقـان بـالقلب الـذى هو مَلك البدن وهو الأصل فى الأعمـال الإراديـة ؛ والطعـام والكسوة يتعلقان بالبدن : الطعام لجلب المنفعة ، واللباس لدفع المضرة .

وفتح الأمر بالهداية فانها وان كانت الهداية النـافعـة هى المتعلقـة بالدين فكل أعمال الناس تابعةٌ لهُدى الله اياهم كما قال سبحانه :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِىْ خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِىْ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[1]

---

(١) سورة الأعلى(٨٧/١-٣) .

وقال موسى :

﴿ رَبُّنَا الَّذِىْ أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[٣] .

وقال : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ إِمَّا شَاكِرًا وَّإِمَّا كَفُوْرًا ﴾[٤] .

ولهذا قيل : الهدى أربعة أقسام :

أحدها : الهداية الى مصالح الدنيا ، فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم ، وبين المؤمن والكافر .

والثانى : الهدى بمعنى دعاء الخلق الى ماينفعهم وأمرهم بذلك ، وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وانزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المُكلّفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُوْدُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوْا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[٥]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَّلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ ﴾[٧] .

فهذا مع قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَتَهْدِىْ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[٨] .

---

(٢) سورة طـه(٢٠/٥٠) .

(٣) سورة البلد(٩٠/١٠) .

(٤) سورة الإنسان(٧٦/٣) .

(٥) سورة فصلت(٤١/١٧) .

(٦) سورة الرعد(١٣/٧) .

(٧) سورة الشورى(٤٢/٥٢) .

(٨) سورة القصص(٢٨/٥٦) .

يُبيّن أن الهدى الذى اثبته هو البيان والدعاء والأمر والنهى والتعليم ومايتبع ذلك . ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لايقدر عليه إلا الله .

والقسم الثالث : الهدى الذى هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذى يُسمّيه بعضهم بالالهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك ، وهو بناء على أن الاستطاعة لاتكون إلا مع الفعل . فمن قال ذلك من أهل الاثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة ؛ وأما من قال انها استطاعتان : إحداهما قبل الفعل وهى الاستطاعة المشروطة فى التكليف كما قال تعالى :

﴿ وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيْلاً ﴾[9]

وقال النبى ﷺ لعمران بن حصين :

« صَلِّ قائمًا . فَإن لم تَسْتَطِعْ فقَاعِدًا ، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ »[10]

وهذه الاستطاعة يقترن بها الفعلُ تارةً والتركُ أخرى وهى الاستطاعة التى لم تعرف القدرية غيرها ، كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الاثبات لم يعرفوا إلا المقارنة . وأما الذى عليه المحققون من

---

(٩) سورة آل عمران(٣/٩٧) .

(١٠) رواه البخارى فى أبواب تقصير الصلاة(٢/٤١) والترمذى فى الصلاة(٢/٢٠٨رقم٣٧٢) وكذا أبوداود(١/٥٨٥رقم٩٥٢) وابن ماجة فى اقامة الصلاة(١/٣٨٦رقم١٢٢٣) وأحمد(٤/٤٢٦) والبيهقى فى «سننه»(٢/٣٠٤) .

أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعا كما بسطناه في غير هذا الموضع ، فان الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا .

والثانية المقارنة للفعل وهى الموجبة له وهى المنفية عمن لم يفعل فى مثل قوله :

﴿ مَاكَانُوْا يَسْتَطِيْعُوْنَ السَّمْعَ وَمَاكَانُوْا يُبْصِرُوْنَ ﴾[11]

وفى قوله : ﴿ لاَيَسْتَطِيْعُوْنَ سَمْعًا ﴾[12] .

وهذا الهدى الذى يكثر ذكره فى القرآن فى مثل قوله :

﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾[13]

وقوله :

﴿ فَمَنْ يُّرِدِ اللهُ أَنْ يَّهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُّرِدْ أَنْ يُّضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[14]

وفى قوله :

﴿ مَنْ يَّهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[15]

وأمثال ذلك وهذا هو الذى تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل

---

(١١) سورة هود(٢٠/١١) .

(١٢) سورة الكهف(١٠١/١٨) .

(١٣) سورة الفاتحة(٦/١) .

(١٤) سورة الأنعام(١٢٦/٦) .

(١٥) سورة الكهف(١٧/١٨) .

له ، ويزعمون أن العبد هو الذى يهدى نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال :

« ياعِبادِى ! كُلُّكُم ضالٌّ إلا مَن هَدَيْتُه فاسْتَهدُونى أهدِكم »

فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك فى أم الكتاب فى قوله :

﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾

وعند القدرية ان الله لايقدر من الهدى إلا على مافعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وازاحة العلة . ولامزيةَ عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى ، ولانعمة له على المؤمن اعظمَ من نعمته على الكافر فى باب الهدى .

وقدبين الاختصاص فى هذه بعد عموم الدعوة فى قوله :

﴿ وَاللهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِىْ مَنْ يَّشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ ﴾[١٦]

فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذى يُجوّزه عليه بعض المثبتة ، وبيان أنه هو الذى يهدى عباده ردًّا على القدرية فأخبر هناك بعدله الذى يذكره بعض المثبتة وأخبر هنا باحسانه وقدرته الذى تنكره القدرية وان كان كل منهما قصده تعظيما لايعرف ماشتمل عليه قوله .

والقسم الرابع الهدى فى الآخرة كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ

---

(١٦) سورة يونس(١٠/٢٥) .

تَجْرِىْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيْهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَّلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيْهَا حَرِيْرٌ وَهُدُوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوْا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيْدِ ﴾[17]

وقال :

﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيْهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيْمَانِهِمْ تَجْرِىْ مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيْمِ ﴾[18]

فقوله يهديهم ربهم بايمانهم كقوله :

﴿ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيْمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَاأَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَىْءٍ ﴾[19]

على أحد القولين فى الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء فى الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا ، وكما أن قصد الشر فى الدنيا جزاءه الهدى الى طريق النار كما قال تعالى :

﴿ اُحْشُرُوْا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَاكَانُوْا يَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ فَاهْدُوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيْمِ ﴾[20]

وقال :

﴿ وَمَنْ كَانَ فِى هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيْلاً ﴾[21]

---

(١٧) سورة الحج(٢٢/٢٣ـ٢٤) .

(١٨) سورة يونس(١٠/٩) .

(١٩) سورة الطور(٥٢/٢١) .

(٢٠) سورة الصافات(٣٧/٢٢ـ٢٣) .

(٢١) سورة الإسراء(١٧/٧٢) .

وقال :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّىْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَيَضِلُّ وَلاَيَشْقَى ؛ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِىْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَّنَحْشُرُهُ يَوْمَالْقِيَامَةِ أَعْمَى ؛ قَالَ رَبِّ لِمَحَشَرْتَنِىْ أَعْمَى وَقَدْكُنْتُ بَصِيْرًا ؟ قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾[22]

وقال :

﴿ مَنْ يَّهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَنْتَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَالْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوْهِهِمْ عُمْيًا وَّبُكْمًا وَّصُمًّا ﴾[23] الآية .

فأخبر أن الضالين فى الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فان الجزاء أبدًا من جنس العمل كما قال ﷺ :

« الرَّاحِمُوْنَ يَرحَمُهُم الرَّحْمنُ . ٱرْحَمُوْا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ »[24]

وقال :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فيه عِلمًا سَهَّلَ له اللهُ به

---

(٢٢) سورة طـه(٢٠/١٢٣ـ١٢٦) .

(٢٣) سورة الإسراء(١٧/٩٧) .

(٢٤) أخرجه ابن أبىشيبة فى «المصنف»(٨/٣٣٨) والحميدى فى «مسنده»(٢/٢٦٩رقم٥٩١) وأبوداود فى الأدب(٥/٢٣١رقم٤٩٤١) والترمذى فى البر(٤/٣٢٣ـ٣٢٤رقم١٩٢٤) وأحمد فى «المسند»(٢/١٦٠) والحاكم فى «المستدرك»(٤/١٥٩) من حديث عبدالله بن عمرو وهو حديث صحيح استوفينا تخريجه فى «شعبالإيمان»للبيهقى .

طريقًا الى الجنَّةِ ؛ ومَن يَسَّرَ عَلى مُعْسرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه فى الدنيا والآخرة ؛ ومَن سَتَرَ مُسْلِمًا سَترَه اللهُ فى الدنيا والآخرة ؛ واللهُ فى عَوْنِ العبدِ ماكانَ العبدُ فى عونِ أَخِيه »[٢٥]

وقال :

« مَنْ سُئِلَ عَن عِلمٍ يَعلَمُه فَكَتَمَه أَلْجَمَه اللهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ مِن نارٍ »[٢٦]

وقد قال تعالى :

﴿ وَلْيَعْفُوْا وَلْيَصْفَحُوْا أَلاَ تُحِبُّوْنَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾[٢٧]

وقال :

﴿ إِنْ تُبْدُوْا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوْهُ أَوْ تَعْفُوْا عَنْ سُوْءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيْرًا ﴾[٢٨]

وأمثال هذا كثير فى الكتاب والسنة .

ولهذا أيضا يُجزى الرجل فى الدنيا على مافعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل : مَن عمل بماعِلمٍ وَرَّثه الله علم ما لم يعلم . وقدقال تعالى :

---

(٢٥) أخرجه مسلم فى الذكر(٣/٢٠٧٤رقم٣٨) وابن ماجة فى المقدمة(١/٨٢رقم٢٢٩) والترمذى فى القراءات(٥/١٩٥رقم٢٩٤٥) وأحمد فى «المسند»(٢/٢٥٢) وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان»(ج٤رقم١٥٧٢) واستوفينا تخريجه فيه فراجعه .

(٢٦) روى عن جمع من الصحابة ذكر بعضها البيهقى فى «الشعب» وقدحققنا الكلام فيه فانظر تعليقنا على الحديث(١٦١٢) فى الجزء الرابع .

(٢٧) سورة النور(٢٤/٢٢) .

(٢٨) سورة النساء(٤/١٤٩) .

﴿ وَلَوْأَنَّهُمْ فَعَلُوْا مَايُوْعَظُوْنَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيْتًا ــالى قوله ــ مُسْتَقِيْمًا ﴾[29]

وقال :

﴿ قَدْجَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُوْرٌ وَّكِتَابٌ مُّبِيْنٌ يَّهْدِىْ بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَه سُبُلَ السَّلاَمِ ﴾[30]

وقال :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقُوْا اللهَ وَآمِنُوْا بِرَسُوْلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوْرًا تَمْشُوْنَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾[31]

وقال : ﴿ إِنْ تَتَّقُوْا اللهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[32] .

فسروه بالنصر[33] والنجاة كقوله ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾[34] وقدقيل بدر فرق[35] به بين الحق والباطل ومثله قوله :

---

(٢٩) نفس السورة(٤/٦٦ـ٦٨) .

(٣٠) سورة المائدة(٥/١٥ـ١٦) .

(٣١) سورة الحديد(٥٧/٢٨) .

(٣٢) سورة الأنفال(٨/٢٩) .

(٣٣) تفسيره بالنجاة جاء عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة. راجع «تفسير الطبرى»(٩/٢٢٥)

وروى عن ابن عباس أيضا أنه فسره بالنصر رواه ابن أبى حاتم كما فى «الدر المنثور»(٣/٥٠) وانظر «تفسير ابن الجوزى»(٣/٣٨٤) .

(٣٤) سورة الأنفال(٨/٤١) .

(٣٥) فى مجموع الفتاوى المنيرية «نور يفرق به» ولعل الصواب ماأثبته . وجاء تفسير «يوم الفرقان» بيوم بدر عن كثير من السلف .

راجع «تفسير الطبرى»(١٠/٩) و«الدر المنثور»(٣/٧١) .

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجًا وَّيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ ﴾[٣٦]

وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع ومن هذا الباب قوله :

﴿ وَالَّذِيْنَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَّآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[٣٧]

وقوله :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوْا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[٣٨]

ومنه قوله :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيْنًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَاتَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَه عَلَيْكَ وَيَهْدِيْكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيْمًا وَّيَنْصُرُكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيْزًا ﴾[٣٩]

وبازاء ذلك ان الضلال والمعاصى تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله :

﴿ فَلَمَّازَاغُوْا أَزَاغَ اللهُ قُلُوْبَهُمْ ﴾[٤٠] ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوْبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾[٤١]

وقال :

---

(٣٦) سورة الطلاق(٦٥/٢-٣) .

(٣٧) سورة محمد(٤٧/١٧) .

(٣٨) سورة الكهف(١٨/١٣) .

(٣٩) سورة الفتح(٤٨/١-٣) .

(٤٠) سورة الصف(٦١/٥) .

(٤١) سورة النساء(٤/١٥٥) وفى الفتاوى المنيرية «وقالوا قلوبنا غلف» وهذا خطأ . نعم جاء هذا فى آية أخرى هو قوله تعالى : =

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيْثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوْبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[٤٢]

وقال :

﴿ وَأَقْسَمُوْا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾[٤٣] الى قوله ﴿ لاَيُؤْمِنُوْنَ ﴾ الى قوله ﴿ يَعْمَهُوْنَ ﴾ وهذا باب واسع .

ولهذا قال من قال من السلف : ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقدشاع فى لسان العامة ان قوله ﴿ اَتَّقُوْا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾[٤٤] من الباب الأول حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله . وأكثر الفضلاء يطعنون فى هذه الدلالة لأنه لم يربط الفعل الثانى بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل واتقُوا اللهَ يُعَلِّمْكم[٤٥] ولاقال فَيُعَلِّمكم ، وانما أتى بواو العطف وليس من العطف مايقتضى ان الأول سبب الثانى . وقديقال : العطف قديتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال زُرْنى وَازُورك ، وسَلِّم علينا ونُسَلِّم عليك ، ونحو ذلك مما يقتضى اقتران الفعلين ، والتعارض من الطرفين ؛ كما لو قال لسيده : أَعتقنى ولكَ علىَّ ألفٌ ؛ أو قالت المرأة لزوجها : طَلِّقنى ولكَ ألفٌ ، أو اخلعنى ولك ألف فإنَّ ذلك بمنزلة قولها بألف أو على ألف .

وكذلك أيضا لو قال : أنتَ حُرٌّ وعليكَ ألفٌ ، أو أنتِ طالقٌ

= ﴿ قالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون ﴾ (البقرة٢/٨٨) .

(٤٢) سورة المائدة(٥/١٣) .

(٤٣) سورة الأنعام(٦/١١٠ـ١١١) .

(٤٤) سورة البقرة(٢/٢٨٢) .

(٤٥) فى الفتاوى والمنيرية «ويعلمكم» بواو العطف وهو خطأ .

وعليكِ ألف فإنه كقوله : على ألف أو بألف عند جمهور الفقهاء ، والفرق بينهما قولٌ شاذٌّ . ويقول أحد المتعاوضين للآخر : أعطيك هذا وآخذ هذا ونحو ذلك من العبارات فيقول الآخر : نعم وان لم يكن أحدهما هو السبب للآخر دون العكس .

فقوله «واتقوا الله ويعلمكم الله» قد يكون من هذا الباب فكُلٌّ من تعليم الرب ، وتقوى العبد يقاربُ الآخر ويلازمه ويقتضيه فمتى عَلَّمه الله العلمَ النافعَ اقترن به التقوى بحسب ذلك ومتَى اتَّقَاه زادَه من العلم وهَلُمَّ جَرًّا .

* * * * *

فصــــل

وأما قوله :

« يَاعِبَادِى ! كُلُّكُمْ جائعٌ إلا مَن أَطْعَمْتُه فَاستَطْعِمُونى أُطْعِمْكم ، وكُلُّكُم عارٍ إلا مَن كَسَوتُه فاستَكْسُونى أَكْسُكم » .

فيقتضى أصلين عظيمين : أحدهما وجوب التوكل على الله فى الرزق المتضّن جلبَ المنفعة كالطعام ودفع المضرَّة كاللباس ، وأنّه لا يقدرُ غيرُ الله على الاطعام والكسوة قدرةً مطلقةً . وانما القدرة التى تحصلُ لبعض العبادِ تكونُ على بعض أسباب ذلك ولهذا قال :

﴿ وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ ﴾[1]

وقال :

﴿ وَلاَتُؤْتُوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَّارْزُقُوْهُمْ فِيْهَا واكْسُوْهُمْ ﴾[2]

---

(١) سورة البقرة(٢/٢٣٣) .

(٢) سورة النساء(٤/٥) .

فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله :

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِيْ يَوْمٍ ذِيْ مَسْغَبَةٍ ، يَتِيْمًا ذَامَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيْنًا ذَامَتْرَبَةٍ ﴾[٣]

وقوله :

﴿ وَأَطْعِمُوْا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾[٤]

وقوله :

﴿ فَكُلُوْا مِنْهَا وَأَطْعِمُوْ الْبَائِسَ الْفَقِيْرَ ﴾[٥]

وقال :

﴿ وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ أَنْفِقُوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنُطْعِمُ مَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾[٦]

فذَمَّ مَن يترك المأمور به اكتفاءً بمايجرى به القدر .

ومن هنا يُعرفُ ان السببَ المأمورَ به أو المباح لايُنافى وجوبَ التوكل على الله فى وجود السبب ، بل الحاجةُ والفقرُ الى الله ثابتةٌ مع فعل السبب إذ ليس فى المخلوقات ماهو وحدَه سببٌ تامٌّ لحصول المطلوب ، ولهذا لايجبُ أن تقترن الحوادثُ بما قديُجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى ، فانه ماشاء اللهُ كانَ ، وما لم يشأ لم يكُن . فَمن ظَنَّ الاستغناءَ بالسبب عن التوكل فقدتركَ ماأوجب الله عليه من التوكل وأخلَّ بواجب التوحيد ؛ ولهذا يُخذَل أمثالُ هؤلاء إذا اعتمدوا على

---

(٣) سورة البلد(٩٠/١٤ـ١٦) .

(٤) سورة الحج(٢٢/٣٦) .

(٥) نفس السورة(٢٢/٢٨) .

(٦) سورة يس(٣٦/٤٧) .

الأسباب ، فمن رجا نصرًا أو رزقًا من غير الله خذلـه الله كما قـال علي رضي الله عنه :

(لا يَرجُوَنَّ عبدٌ إلاَّ ربَّه ولا يَخافَنَّ إلاَّ ذَنْبَه)

وقد قال تعالى :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلاَمُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَمُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴾[٧]

وقال تعالى :

﴿ وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَكَاشِفَ لَـهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُّرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَرَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيْبُ بِهِ مَنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

(سورة يونس١٠/١٠٧)

وقال :

﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَـلْ هُنَّ كَـاشِفَـاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَـةٍ هَـلْ هُنَّ مُمْسِكَـاتُ رَحْمَتِـهِ ؟ قُـلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْـهِ يَتَـوَكَّـلُ الْمُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[٨]

وهـذا كما أن من أخـذ يـدخـل فى التـوكل تـاركا لمـاأمر بــه من الأسباب فهو أيضا جاهلٌ ظالمٌ عاصٍ لله بترك ماأمره فان فعل المأمور به عبادةٌ لله وقد قال تعالى :

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[٩]

---

(٧) سورة فاطر(٢/٣٥) .

(٨) سورة الزمر(٣٨/٣٩) .

(٩) سورة هود(١٢٣/١١) .

وقال :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾[١٠]

وقال :

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّىْ لاَإِلَـهَ إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[١١].

وقال شعيب عليه السلام :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[١٢]

وقال :

﴿ وَمَااخْتَلَفْتُمْ فِيْهِ مِنْ شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَالِكُمُ اللهُ رَبِّىْ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[١٣]

وقال :

﴿ قَدْكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىْ إِبْرَاهِيْمَ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ إِذْ قَالُوْا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّاتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوْا بِاللهِ وَحْدَهُ إلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيْمَ لأَبِيْهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَاأَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾[١٤]

---

(١٠) سورة الفاتحة(٥/١) .

(١١) سورة الرعد(٣٠/١٣) .

(١٢) سورة هود(٨٨/١١) .

(١٣) سورة الشورى(١٠/٤٢) .

(١٤) سورة الممتحنة(٤/٦٠) .

فليس مَن فعل شيئا أُمر بـه وتَرَك مـاأُمر بـه من التوكل بـأعظم ذنبا مِمَّن فعلَ توكُّلاً ماأُمر بـه ، وتَرَك فعل مـاأمر بـه من السبب . إذ كلاهمـا مُخلٌّ ببعض مـاوجب عليـه ، وهمـا مع اشتراكهما فى جنس الذنب فقديكون هذا ألومَ وقديكون الآخر مع أن التوكل فى الحقيقة من جملة الأسباب .

وقدروى أبوداود فى سننه[15] أن النبى ﷺ قضى بين رَجُلين فقـال المقضىُّ عليه : حَسْبىَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ فقال النبى ﷺ :

« إنَّ الله يلومُ عَلى العِجز . ولكِنْ عَليـك بـالكَيس ، فـإنْ غَلَبَكَ أمرٌ فقُلْ حَسْبىَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ »

وفى صحيـح مسلم[16] عن أبى هريرة رضى الله عنـه عن النبى ﷺ أنه قال :

« المؤمنُ القَوىُّ خيرٌ وأحبُّ الى الله من المُؤمنِ الضَّعيفِ ، وفى كُلٍّ خيرٌ . احرِصْ على مَـاينفَعُـك ، واستَعِنْ بـالله ولاتَعْجَز . فـإنْ أصَابَك شىءٌ فـلاتَقُـلْ : لَـو أنِّى فَعلتُ لكانَ كذا وكـذا ! ولكن قُلْ : قَـدَّر اللهُ ومـاشـاءَ فعلَ فـإنَّ اللَّو تفتحُ عملَ الشيطان »

ففى قوله ﷺ .

« احرِصْ عَلى مايَنْفَعُكَ ، واستَعِن بالله ، ولاتَعْجَز »

---

(١٥) فى الأقضية(٤٤/٤رقم٣٦٢٧) عن عوف بن مالك وسنده ضعيف وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان»(رقم١١٦٢) فانظر تخريجه فيـه . ولـه شـاهـد من حـديث أبى أمـامـة أخرجه أبوالشيخ فى «الأمثال»(رقم٢١٠ـبتحقيقنا) .

(١٦) فى القـدر(٢٠٥٣/٣رقم٣٤) وأخرجـه البيهقى فى «شعب الإيمـان»(٥١٢/١ـ٥١٣رقم١٩١) وقداستوفينا تخريجه فيه .

أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع ، وأمر مع ذلك بالتوكل ، وهو الاستعانة بالله . فمن اكتفى بأحدهما فقدعصى أحد الأمرين ؛ ونهى عن العجز الذى هو ضد الكيس كما قال فى الحديث الآخر :

« ان الله يلومُ على العِجز ، ولكن عَليك بالكيس »

وكما فى الحديث الشامى[17] :

« الكَيِّسُ مَن دانَ نفسَه ، وعَمِل لما بعدَ الموت ؛ والعاجزُ من أَتْبَعَ نفسَه هَواها وتَمَنَّى على الله »

فالعاجز فى الحديث مقابل الكيّس ومن قال العاجز الذى هو مقابل البَرّ فقد حَرَّف الحديث ولم يفهم معناه .

ومنه الحديث[18] :

« كُلُّ شَىءٍ بِقَدرٍ حتّى العجز والكيس »

ومن ذلك ماروى البخارى فى صحيحه[19] عن ابن عباس قال :

« كان أهلُ اليَمن يَحُجُّون .ولا يَتَزَوَّدُوْنَ ، يقولونَ : نحن

(١٧) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة(٦٣٨/٤رقم٢٤٥٩) وابن ماجة فى «الزهد»(١٤٢٣/٢رقم٤٢٦٠) وأحمد فى «المسند»(١٢٤/٤) والحاكم فى «المستدرك»(٥٧/١) وصححه وردّه الذهبى بقوله : لا والله . أبوبكر ــوهو ابن أبىمريم الغسانىــ واه . ثم اعاده الحاكم(٢٥١/٤) وأقره الذهبى على تصحيحه : وذكره الألبانى فى «ضعيف الجامع الصغير»(٤٣١٠) وهو فى «شعب الإيمان»للبيهقى باب الزهد .

(١٨) رواه مالك فى «الموطأ»(٨٩٩) ومسلم فى القدر(٢٠٤٥/٣رقم١٨) والبخارى فى خلق أفعال العباد(ص١٧) وأحمد فى «المسند»(١١٠/٢) من حديث عبدالله بن عمرَ .

(١٩) فى الحج(١٤١/٢)

وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان»(١١٥٣) وانظر تخريجه فيه .

المُتَوَكِّلون . فاذا قَدِمُوا سَألوا الناسَ »

فقال الله تعالى :

﴿ وَتَزَوَّدُوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[20]

فمَن فَعل ماأُمر به من التزوّد فاستعانَ به على طاعة الله ، وأحسن منه الى مَن يكون محتاجا ، كان مطيعا لله فى هـذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتـا الى أزواد الحجيج ، كَلاًّ على النـاس ، وان كان مـع هـذا قلبُـه غير ملتفت الى معين فهـو ملتفت الى الجملـة . لكن ان كان المتزوّد غير قـائم بمـايجب عليـه من التـوكل على الله ، ومـواسـاة المحتاج فقـديكون فى تركـه لمـاأُمر بـه من جنس هـذا التـارك للتزود المأمور به .

وفى هذه النصوص بيانُ غلط طوائف : طائفة تُضعف أمر السبب المأمور به فتعُدّه نقصا أو قدحا فى التوحيـد والتوكل ، وان تركـه من كمال التوكل والتوحيد وهم فى ذلك ملبوس عليهم ، وقديقترن بـالغلـط اتباع الهوى فى اخلاد النفس الى البطالة ولهذا تجد عامَّـة هـذا الضرب التاركين لماأُمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك ، فـإمَّـا أن يُعلقوا قلوبهم بالخلق رغبةً ورهبةً ، وإمَّـا أن يتركوا لأجل مـاتبتَّلوا له من الغُلوّ فى التوكل واجباتٍ أو مستحبـاتٍ أنفعَ لـهم من ذلـك كمن يصرفُ همَّتَه فى توكله الى شفاء مرضه بلادواء ، أو نيل رزقـه بلاسعى فقديحصل ذلـك ، لكن كان مبـاشرةُ الـدواء الخفيف ، والسعىُ اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه فى عمل صالح انفعَ له بل قـديكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذى قدره درهم أو نحوه .

---

(٢٠) سورة البقرة(٢/١٩٧) .

وفوق هؤلاء مَن يجعل التوكلَ والدعاءَ أيضا نقصا وانقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة مافرغ منه فى القدر هو حال الخاصة وقدقال فى هذا الحديث :

« كلكم جائعٌ إلا من أَطعمتُه فاستَطْعِمُونى أُطْعِمْكُم وقال فاستَكسُونِى أُكسِكُم »

وفى الطبرانى[21] وغيره عن النبى ﷺ قال :

« لِيَسْئَلْ أحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلُّها حتّى شِسْع نَعْلِه إذا انقَطَع فإنَّه إن لَمْ يُيَسِّرْه لَمْ يَتَيَسَّر »

وهذا قديلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك . وقولهم يُوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخاوق والمأمور وانما غلطوا من حيث ظنوا [ان] سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به ، كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على ان القدر قدسبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ، ولم يعلم ان القدرَ سبقَ بالأمور على ماهى عليه فَمَن قَدَّرَه الله من أهل السعادة كان مما قدره الله بتيسيره لعمل أهل السعادة ، ومَن قَدره من أهل الشقاوة كان مما قدره أنه يُيَسِّره لعمل أهل الشقاء كما قدأجاب النبى ﷺ عن هذا السوال فى حديث على بن أبى طالب[22] وعمران بن[23] حصين وسراقة

---

(٢١) رواه الطبرانى فى كتاب الدعاء(٤/ب) وأخرجه الترمذى فى الدعوات(٤/٢٩٢ـتحفة) والبيهقى فى «شعب الإيمان»(رقم١٠٧٩) وانظر الكلام عليه هناك .

(٢٢) حديث على بن أبى طالب أخرجه البخارى فى التفسير(٨٥/٦) ومسلم فى القدر(٢٠٤٠/٣) وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان»(٤٩٤/١رقم١٨٢) واستوفينا تخريجه فيه .

(٢٣) حديث عمران بن حصين أخرجه مسلم فى القدر من «صحيحه»(٢٠٤١/٣) وأحمد فى «مسنده»(٤٣٨/٤)

ابن[٢٤] جعشم وغيرهم .

ومنه حديث الترمذى[٢٥] حدثنا ابن (أبى) عمر ، حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن أبى خزامة عن أبيه قال سألت النبى ﷺ فقلت : يارسول الله أرأيت أدويةً نَتَداوى بها ورُقًى نسترقى بها وتُقاةً نتقيها هل تَرُدُّ من قدر الله شيئا ؟ فقال : « **هى من قدر الله** » .

وطائفة تظن أن التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقرّبين الى الله بالنوافل . وكذلك قولهم فى أعمال القلوب وتوابعها كالحُبّ والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضَلالٌ مُبين ، بل جميعُ هذه الأمور فروضٌ على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ، ومَن تركَها بالكلية فهو إمَّا كافرٌ ، وإمَّا منافق ، لكن الناس هم فيها كما هم فى الأعمال الظاهرة ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مقتصدٌ ، ومنهم سابق بالخيرات . ونصوص الكتاب والسنة طافحةٌ بذلك . وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علما وعملا بأقلَّ لَومًا من التاركين لماأُمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال ، بل استحقاقُ الذم والعقاب يتوجَّه الى مَن تركَ المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة وان كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها ، والأمور الظاهرة كمالها وفروعها التى لاتتمُّ إلا بها .

* * * * *

= وهو عند البيهقى فى «شعب الإيمان»(١/٤٩٥-٤٩٦رقم١٨٣) وانظر فيه تخريجه .

(٢٤) حديث سراقة أخرجه ابن ماجة فى المقدمة(١/٣٥رقم٩١) وقال فى الزوائد : فى اسناده مقال .

(٢٥) أخرجه الترمذى فى الطب(٤/٣٩٩رقم٢٠٦٥) وابن ماجة(٢/١١٣٧رقم٣٤٣٧) وأحمد فى «المسند»(٣/٤٢١)

وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان»(رقم١١٥٧) فراجع كلامنا عليه .



فصـــل

وأما قوله :

« يَاعِبَادِى ! إنَّكُم تُخْطِئُون بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِيْعًا »

وفى رواية :

« وأَنا أغفرُ الذنوبَ ولاأُبَالى فَاسْتَغْفِرُونى أَغْفِرْ لَكُم »

فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان :

أحدهما : المغفرة لمن تاب كما فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِيْنَ أَسْرَفُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُوْا مِنْ رَّحْمَةِ اللهِ ﴾ الى قوله ﴿ ثُمَّ لاَتُنْصَرُوْنَ ﴾[1]

فهذا السياق مع سبب[2] نزول الآية يبين أن المعنى : لايَيْأس

---

(١) سورة الزمر(٣٩/٥٣ـ٥٤) .

(٢) ذكر فى سبب نزول هذه الآية أقوال أصحها مارواه البخارى فى التفسير من «صحيحه» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان ناسا من أهل الشرك كانوا قدقتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا : ان الذى تقول وتدعو اليه لَحَسَنٌ لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزل : ﴿ والذين لايدعون مع الله الها آخر ﴾ ونزل ﴿ قل ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم ﴾ .

وانظر «أسباب النزول»للواحدى(٣٩٠) .

وقيل نزلت فى وحشى قاتل حمزة .

وقيل نزلت فى قوم آمنوا ثم افتتنوا . راجع «اسباب النزول»(٣٨٩ـ٣٩١) و«الدر المنثور»(٧/٢٣٥ـ٢٣٧) .

مُذنبٌ من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ماكانت فان الله سبحانه لا يتعاظمُه ذنبٌ أن يَغفره لعبده التائب ، وقددخل فى هذا العموم الشركُ وغيره من الذنوب فان الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال تعالى :

﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ الى قوله ﴿ فَإِنْ تَابُوْا وَأَقَامُوْا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوْا سَبِيْلَهُمْ ﴾[٣]

وقال فى الآية الأخرى :

﴿ فَإِنْ تَابُوْا وَأَقَامُوْا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّيْنِ ﴾[٤]

وقال :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ الى قوله ﴿ أَفَلاَ يَتُوْبُوْنَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَهُ وَاللهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾[٥]

وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه ــ كما دل عليه القرآن والحديث ــ هو الصواب عند جماهير أهل العلم ، وان كان من الناس مَن يستثنى بعض الذنوب كقول بعضهم ان توبة الداعية الى البدع لاتقبل باطنًا للحديث الإسرائيلى[٦] الذى فيه فكيف من

---

(٣) سورة براءة(٩/٥) .

(٤) نفس السورة(٩/١١) .

(٥) سورة المائدة(٥/٧٣ـ٧٤) .

(٦) لم أقف على هذا الحديث .

وقدفصّل شيخ الاسلام القول فى مسئلة توبة المبتدع فى فتاواه فقال فى «تفسيره» =

= لقوله تعالى : « ان الله يغفر الذنوب جميعا » :
هذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعا ، وفيها ردٌّ على طوائف ، ردّ على من يقول : إن الداعى الى البدعة لاتقبل توبته ويحتجّون بحديث اسرائيلى فيه : انه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟
وهذا يقوله طائفة ممن ينتسب الى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك ، كأبىعلى الأهوازى وأمثاله ممن لايميّزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، ومايحتجّ به ما لايحتجّ به ، بل يروون كل ما فى الباب محتجّين به .
وقدحكى هذا طائفة قولا فى مذهب أحمد أو رواية عنه ، وظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين انه تقبل توبته كماتقبل توبة الداعى الى الكفر ، وتوبة من فتن الناس عن دينهم وقدتاب قادة الأحزاب مثل أبىسفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبىجهل وغيرهم بعد أنقتل على الكفر بدعائهم من قتل ، وكانوا من أحسن الناس اسلاما وغفر الله لهم . قال تعالى :
﴿ قل للذين كفروا إنينتهوا يغفر لهم ما قدسلف ﴾ (سورةالأنفال٣٨/٨) .
وعمرو بن العاص كان من أعظم الدُّعاة الى الكفر والإيذاء للمسلمين وقدقال له النبى ﷺ لماأسلم : « ياعمرو ! أما علمت ان الاسلام يجبُّ ماكان قبله » ؟ !
وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ﴾ (سورةالاسراء١٧/٥٧) .
قال : كان ناس من الانس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم أولئك الجن ، والانس يعبدونهم .
ففى هذا أنه لميضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الاسلام لهم ، وإن كانواهم أضلّوهم أولا .
وأيضا فالداعى الى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل هذا واتبعه . وهذا عليه وزره ووزر من اتبعه الى يومالقيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فاذاتاب من ذنبه لميبق عليه وزره ولا ماحمله هو لأجل إضلالهم . وأماهم فسواء تاب أو لميتب حالهم واحد . ولكن توبته قبل هذا تحتاج الى ضد ماكان عليه من الدعاء الى الهدى ، كماتاب كثير من الكفار =

أضللت ، وهذا غلط ، فـان الله قـدبَيَّنَ فى كتـابـه وسُنّـة رسولـه أنـه يتوبُ على أئمّة الكفر الذين هم أعظم من أئمّة البدع وقدقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ فَتَنُوْا الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوْبُوْا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيْقِ ﴾[7]

قـال الحسن البصرى : انظروا الى هـذا الكرم عـذبـوا أوليـاءه وفتنوهم ثم هو يدعوهم الى التوبة .

وكذلك توبة القاتل ونحوه . وحـديث أبى سعيـد المتفق عليـه[8] فى الـذى قتـل تسعـة وتسعين نفسًا يـدل على قبـول تـوبتـه . وليس فى الكتاب والسنة مايُنـافى ذلـك ، ولانصوص الوعيـد فيـه وفى غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة . فليست آيـة الفرقـان بمنسوخـة بآية النساء إذ لامنافاة بينهما فانه قدعُلم يقينا أن كل ذنب فيه وعيـدٌ فإنَّ لحوقَ الوعيد مشروطٌ بعدم التوبة إذ نصوصُ التوبة مُبَيِّنـةٌ لتلـك النصوص كالوعيد فى الشرك وأكل الربا وأكل مـال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب .

ومن قال من العلماء : توبته غير مقبولـة فحقيقـةُ قولـه التى تلائمُ أصولَ الشريعـة أن يُراد بـذلـك أن التوبـة المجردة تُسقـطُ حقَّ الله من

= وأهل البدع وصاروا دعاة الى الاسلام والسنة . وسحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

راجع «مجموع فتاوى شيخ الاسلام»(١٦/٢٣ـ٢٥) .

(٧) سورة البروج(٨٥/١٠) .

(٨) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبيـاء(٤/١٤٩) ومسلم فى التوبـة(٣/٢١١٨رقم٤٦،٤٧) وابن مـاجـة فى الـديـات(٢/٨٧٥رقم٢٦٢٢) وأحمـد فى المسنـد(٣/٧٢) وأبـويعلى فى «مسنده»(٢/٣٠٥ـ٣٠٧رقم١٠٣٣) .

العقاب ، وأما حق المظلوم فلا يسقُطُ بمجرد التوبة وهذا حقٌّ ؛ ولافرق فى ذلك بين القاتل وسائر الظالمين . فَمن تابَ مِن ظلم لم يسقُط بتوبته حقٌّ المظلوم ، لكن من تمام توبته أن يُعوِّضه بمثل مظلمته ، وان لم يُعوّضه فى الدنيا فلابُدَّ له من العوض فى الآخرة فينبغى للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفَى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ، ومع هذا فاذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلارادَّ لفضله كما إذا شاء أن يغفر مادون الشرك لمن يشاء ؛ ولهذا فى حديث القصاص الذى ركب فيه جابر بن عبدالله الى عبدالله بن أنيس شهرا حتى شافهه به ـــ وقد رواه الإمام أحمد[٩] وغيره واستشهد به البخارى فى صحيحه[١٠] وهو من جنس حديث الترمذى صحاحه أو حسانه ـــ قال فيه :

« إذا كانَ يومُ القيامَةِ فإنَّ اللهَ يَجمعُ الخلائقَ فى صعيدٍ واحدٍ يُسمعهُم الدَّاعى ، وينفذهم البصَرُ ، ثم يُناديهم بصوت يَسمعه مَن بَعُد كما يسمعه مَن قَرُب : أنا المَلِكُ ، أنا الدَّيَّانُ ، لاينبغى لأحدٍ من أهل الجنة أن يَدخُل الجنَّةَ ، ولأحد من أهل النار قِبلَه مظلمةٌ ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحدٍ من أهل الجنة [عنده حق] حتى أقُصّه منه »

فبين فى الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار . وفى صحيح مسلم[١١] من حديث أبى سعيد :

---

(٩) راجع «المسند»(٤٩٥/٣) وقال ابن حجر ورواه أبويعلى والطبرانى .

(١٠) فى «التوحيد»(١٩٤/٨) ووصله فى «الأدب المفرد»(٢٥٢رقم٩٧٠) .

(١١) كذا فى «الفتاوى» و«المنيرية» وهو خطأ . فالحديث من ماتفرد به البخارى عن =

« إنَّ أهلَ الجنَّـةِ إذا عَبروا الصِّراطَ وُقفـوا على قَنطرة بين الجنَّـة والنـارِ فيُقْتَصُّ لبعضهم مِن بعض فـإذا هُـذِّبـوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة »

وقد قال سبحانه لما قال :

﴿ وَلاَيَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضًـا ﴾ ــوالاغتيـاب من ظلم الأعراض قالــ ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّأْكُلَ لَحْمَ أَخِيْهِ مَيْتًـا فَكَرِهْتُمُوْهُ وَاتَّقُوْا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيْمٌ ﴾[١٢]

فقد نبَّههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم وفى الحديث الصحيح[١٣] :

« مَن كانَ عِنـدَه لأخيـه مظلمةٌ فى دمٍ أو مـالٍ أو عِرضٍ فليَأتِه فَليَسْتَحِلَّ مِنـه قبلَ أن يـأتى يومٌ ليسَ فيـه درهمٌ ولادينارٌ إلا الحسنات والسيئات ؛ فإنْ كانَ لـه حسنـاتٌ وإلا أُخِذ من سَيِّئاتِ صاحبه فطُرِحَت عليـه ثم يُلْقَى فى النار » أو كما قال .

وهــذا فيما علمــه المظلــوم من العــوض فــأمــا إذا اغتـابـــه أو قذفه ولم يعلم بذلك ، فقد قيل من شرط توبته اعلامُه .

وقيل : لا يشترط ذلك وهـذا قول الأكثرين ، وهـما روايتـان عن أحمد لكن قولـه مثل هـذا أن يفعل مع المظلوم حسنـات كالـدعـاء لـه والإستغفار وعمل صالح يُهدى اليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه .

= مسلم . فـأخرجـه فى المظـالم(٩٧/٣) وفى الرقـاق(١٩٧/٧) وأخرجـه البيهقى فى «شعب الإيمان»(١٨٠/٢ـ١٨١رقم٣٣٩) فانظر تخريجه فيه .

(١٢) سورة الحجرات(١٢/٤٩) .

(١٣) رواه البخارى فى المظالم(٩٩/٣) وفى الرقاق(١٩٧/٧) من حديث أبى هريرة وأخرجه أحمد فى «المسند»(٤٣٥/٢،٥٠٦) .

قال الحسن البصرى : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته .

وأما الذنوب التى يطلق الفقهاء فيها نفى قبول التوبة مثل قول أكثرهم : لاتقبل توبة الزنديق وهو المنافق[١٤] وقولهم : إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله ، وكذلك قول كثير منهم أو أكثرهم فى سائر الجرائم كما هو أحد قولى الشافعى وأصح الروايتين عن أحمد ، وقولهم : هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع الى الامام لم تقبل توبتهم فهذا انما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لاتقبل توبتهم بحيث يُخَلَّى بلاعقوبة ، بل يعاقَب إما لأنَّ توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها ، وإما لأن رفع العقوبة بذلك يُفضى الى انتهاك المحارم وسدّ باب العقوبة على الجرائم ؛ ولا يريدون بذلك أنَّ مَن تاب من هؤلاء توبةً صحيحةً فإن الله لايقبل توبته فى الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء بل هذه التوبة لاتُمنع إلا إذا عاينَ أمر الآخرة كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوْبُوْنَ مِنْ قَرِيْبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوْبُ اللهُ عَلَيْهِم وَكَانَ اللهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا؛وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّيْ تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِيْنَ

---

(١٤) كذا فسر الزنديق بالمنافق . والزنديق فى الأصل هو من يؤمن بالنور والظلمة . والزنادقة من اتباع دَيصان ثم مانى ثم مزدك . أظهر جماعة منهم الإسلام خشية القتل . ومن ثم أطلق الإسم على من أسرّ الكفر وأظهر الإسلام حتى قال مالك : الزندقة ما كان عليه المنافقون . وكذا أطلق جماعة من الفقهاء الشافعية وغيرهم ان الزنديق هو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر . راجع «فتح البارى»(٢٧١/١٢) .

يَمُوْتُوْنَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾[١٥] الآية .

قال أبوالعالية[١٦] سألت أصحاب محمد ﷺ عن ذلك فقالوا لى : كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقدتاب من قريب .

وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذى قال الله فيه :

﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّه لاَإِلهَ إِلاَّ الَّذِىْ آمَنَتْ بِهِ بَنُوْا إِسْرَائِيْلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴾[١٧]

قال الله :

﴿ آلآنَ وَقَدْعَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ ﴾[١٨]

وهذا استفهام انكار بَيَّن به ان هذه التوبة ليست هى التوبة المقبولة المأمور بها ، فان استفهام الإنكار إمَّا بمعنى النفى إذا قابل الإخبار ، وإما بمعنى الذم والنهى إذا قابل الإنشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوْا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَّاكَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِءُوْنَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوْا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِيْنَ

---

(١٥) سورة النساء(١٧/٤ـ١٨) .

(١٦) وروى نحوه عن غيره أيضا راجع «تفسير الطبرى»(٢٩٨/٤) و«الدر المنثور»(٤٥٩/٢) .

(١٧) سورة يونس(٩٠/١٠) وفى الفتاوى والمنيرية «فلما أدركه الغرق ...» .

(١٨) نفس السورة(٩١/١٠) .

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾[١٩] الآية .

بَيَّنَ أن التوبة بعد رؤية البأس لاتنفع ، وان هذه سنة الله التى قدخلت فى عباده كفرعون وغيره .

وفى الحديث[٢٠] :

« إنَّ اللهَ يَقبَلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِرْ »

وروى «ما لم يُعَاين» . وقدثبت فى الصحيحين[٢١] أنه ﷺ :

« عَرضَ على عَمّه التوحيدَ فى مرضه الذى ماتَ فيه »

وقدعاد يهوديا كان يخدمُه فعَرضَ عليه الإسلامَ فأسلمَ فقال :

« الحمدُ لله الذى أنقذَه بى مِن النار » . ثم قال لأصحابه :

« آوُوْا أخاكم »[٢٢]

ومما يبين أن المغفرة العامة فى الزمر[٢٣] هى للتائبين أنه قال فى سورة النساء :

---

(١٩) سورة المؤمن(٤٠/٨٣ـ٨٥) .

(٢٠) أخرجه الترمذى فى الدعوات(٥/٥٤٧رقم٣٥٣٧) وابن ماجة فى «الزهد»(٢/١٤٢٠رقم٤٢٥٣) وأحمد فى «المسند»(٢/١٣٢،١٥٣) وابن حبان(٦٠٧رقم٢٤٤٩ـموارد) والحاكم(٤/٢٥٧)
وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان» .

(٢١) راجع الخبر فى «البخارى» فى مناقب الأنصار(٤/٢٤٧) وفى التفسير(٥/٢٠٨،٦/١٧ـ١٨)
وأخرجه مسلم فى الإيمان(١/٥٤رقم٣٩،٤٠) وأحمد فى «المسند»(٥/٤٣٣) .

(٢٢) أخرجه البخارى فى الجنائز(٢/٩٧) وأبوداود فى الجنائز أيضا(٣/٤٧٤رقم٣٠٩٥) وأحمد فى «المسند»(٣/١٧٥، ٢٢٧، ٢٨٠) وأبويعلى فى «مسنده»(٦/٩٣رقم٣٣٥٠) والبيهقى فى الجنائز(٣/٣٨٣) .

(٢٣) فى قوله تعالى : ﴿ ان الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ (سورةالزمر٣٩/٥٣) .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَيَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَـادُوْنَ ذلِـكَ لِمَنْ يَّشَاءُ ﴾[٢٤]

فقيَّدَ المغفرةَ بمادون الشرك وعَلَّقها على المشيئة وَهناك أطلق وعَمَّم فدلَّ هذا التقييدُ والتعليق على أن هذا فى حق غير التائب ، ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر فى الجملة خلافا لمن أوجبَ نفوذَ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وان كان المخالفون لهم قدأسرف فريقٌ منهم من المرجئة حتى توقَّفوا فى لحوق الوعيد بأحد من أهل القبلة كما يُذكر عن غُلاتهم أنهم نَفَوه مطلقا ، ودينُ الله وسطٌ بين الغالى فيه والجافى عنه ؛ ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلفِ الأمة وأئمتها متطابقةٌ على أنَّ من أهل الكبائر مَن يُعذَّب ، وانه لايبقى فى النار مَن فى قلبه مثقالُ ذَرَّة من ايمان .

النوع الثانى من المغفرة العامة التى دل عليها قوله :

«يَاعِبَادِى ! انَّكُم تُخْطِئُون بِاللَّيْلِ والنَّهارِ وأنا أغفرُ الذُّنُوبَ جميعا »

المغفرة بمعنى تخفيف العذاب أو بمعنى تأخيره الى أجل مسمى ؛ وهذا عامٌّ مطلقا ولهذا شفع النبي ﷺ فى أبىطالب مع موته على الشرك فنُقِلَ من غمرةٍ من نار حتَّى جُعل فى ضحضاح من نار فى قدميه نعلان من نار يَغلى منها دماغُه قال : «ولو لا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار»[٢٥] .

---

(٢٤) سورة النساء(٤/٤٨،١١٦) .

(٢٥) راجع البخارى فى مناقب الأنصار(٤/٢٤٧) وفى الأدب(٧/١٣١) وفى الرقاق(٧/٢٠٣) ومسلم فى الإيمان(١/١٩٤-١٩٥)رقم٣٥٧-٣٦٠) وأحمد فى «المسند»(١/٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠؛ ٣/٩، ٥٠، ٥٥) .

وعلى هذا المعنى دل قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوْا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾[٢٦]

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾[٢٧]

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ وَيَعْفُوْا عَنْ كَثِيْرٍ ﴾[٢٨]

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(٢٦) سورة فاطر(٤٥/٣٥) .

(٢٧) سورة النحل(٦١/١٦) .

(٢٨) سورة الشورى(٣٠/٤٢) .

فصـــــل

وأما قوله عز وجل :

« يَاعِبادِى ! إنَّكُمْ لَن تَبلُغُوا ضُرِّى فتَضُرُّونى ، ولن تَبلُغُوا نَفعى فَتَنْفَعُونى »

فانه هو بَيَّن بذلك انه ليس هو فيما يُحسِنُ به اليهم من اجابة الدعوات وغفران الزَّلاَّت بالمستعيض بذلك منهم جَلبَ منفعةٍ أو دفع مضرةٍ ، كما هى عادة المخلوق الذى يُعطِى غيرَه نفعًا لِيُكافئه عليه بنفع ، أو يدفع عنه ضررًا ليَتَّقى بذلك ضرره فقال :

« انكم لن تَبلُغوا نَفعى فتَنْفَعونى ، ولن تبلُغوا ضُرّى فتضرونى »

فلست إذًا اخصكم بهداية المستهدى وكفاية المستكفى المستطعم والمستكسى بالذى أطلب أن تنفعونى ، ولا أنا إذا غفرت خطاياكم بالليل والنهار أتقى بذلك أن تضرونى ، فانكم لن تبلُغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلُغوا ضُرّى فتضرونى . إذ هم عاجزون عن ذلك بل مايقدرون عليه من الفعل لايقدرون عليه إلا بتقديره وتدبيره فكيف بما لايقدرون عليه ؟ فكيف بالغنىّ الصمد الذى يمتنع عليه أن يستحق من غيره نفعا أو ضرا ؟

وهذا الكلام كما بَيَّنَ أنَّ مايفعله بهم من جلب المنافع ودفع المضار فانهم لن يبلغوا أن يفعلوا به مثل ذلك ، فكذلك يتضمن أن مايأمرهم به من الطاعات ومانيهاهم عنه من السيئات ، فإنّه لايتضمَّن استجلاب نفعهم كأمر السيد لعبده ، أو الوالد لولده ، والأمير لرعيته ونحو ذلك ، ولادفع مضرتهم كنهى هؤلاء أو غيرهم لبعض الناس عن مضرتهم فإنّ المخلوقين يبلغ بعضهم نفع بعض ومضرة بعض وكانوا فى أمرهم ونهيهم قديكونون كذلك ؛ والخالق سبحانه مُقدَّسٌ عن ذلك فبَيَّن تنزيهه عن لحوق نفعهم وضرهم فى احسانه اليهم بمايكون من أفعاله بهم وأوامره لهم .

قال قتادة : ان الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته اليهم ولانهاهم عما نهاهم عنه بُخلاً به عليهم ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم .

* * * * *

فصـــل

ولهذا ذكر هذين الأصلين بعد هذا فذكر أن بِرَّهُم وفجورَهم الـذى هو طـاعتهم ومعصيتهم لايزيـدُ فى مُلكـه ، ولاينقُص ، وأنَّ إعطـاءَه ايَّاهم غايةَ مايسألونه نسبتُـه الى مـا عنـده أدنى نسبـة . وهـذا بخلاف الملوك وغيرهم ممن يزدادُ مُلكه بطاعة الرعية وينقص ملكه بالمعصية ؛ وإذا أعطَى الناس مايسألونَـه أنفـد مـاعنـدَه ولم يُغْنِهم . وهم فى ذلـك يبلغون مضرَّته ومنفعته ، وهو يفعلُ مايفعله من احسـان وعفو وأمر ونهى لرجاء المنفعة وخوف المضرة فقال :

« يَـاعِبـادِى ! لو أنَّ أوَّلَكُم وآخرَكُم وإنسَكم وجِنَّكم كانـوا على أَتْقَى قلبِ رجـلٍ منكم مـازادَ ذلـك فى ملكى شيئـا . يَاعِبَـادى ! لو أنَّ أوَّلَكُم وآخركم وانسَكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا »

هو قدرتـه على التصرف فلاتزداد بطـاعتهم ولاتنقص بمعصيتهم كما تـزداد قـدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم ، وتنقص بقلـة المطيعين لهم فإنَّ مُلكه متعلق بنفسه ، وهو خالقُ كُلِّ شىء ورَبُّـه ومَليكُـه ، وهو الذى يُؤتى الملكَ مَن يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء .

والملكُ قديُراد به القـدرة على التصرف والتـدبير ؛ ويراد بـه نفسُ التـدبير والتصرف ؛ ويراد بـه المملوك نفسـه الـذى هو محل التـدبير ؛

ويراد به ذلك كُلُّه . وبكُلّ حال فليس بِرُّ الأبرار وفجورُ الفُجَّار موجبا لزيادة شيء من ذلك ولانقصه ، بل هو مشيئته وقدرته يخلقُ مايشاء . فلوشاء أن يخلقَ مع فجور الفُجَّار ماشاء لم يمنَعه من ذلك مانعٌ ، كما يمنع الملوكَ فجورُ رعاياهم التى تعارض أوامرهم عمايختارونه من ذلك . ولوشاء أن لايخلقَ مع بر الأبرار شيئًا مماخلقه لم يكن بِرُّهم مُحوجًا له الى ذلك ولامعينا له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين .

* * * * *

فصـــل

ثم ذكر حالهم فى النوعين : سؤال بره وطاعة أمره اللذين ذكر هما فى الحديث حيث ذكر الاستهداء والاستطعام والاستكساء وذكر الغفران والبر والفجور فقال :

« لـو أنَّ أوَّلَكُم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانـوا فى صعيـدٍ واحدٍ فسَأَلُونى فأعطَيتُ كُلَّ انسان منهم مسألتَه مـانقَصَ ذلــك ممـــا عنـــدى إلا كما يَنقُصُ المخيــطُ إذا دخـلَ البحرَ »

والخِيَاطُ والمِخْيَط : مايُخـاط بـه إذ الفِعَـال والمِفْعَل والمِفْعَـال من صيغ الآلات التى يفعل بها كالمِسعر والحِلاَب والمِنشار .

فبَيَّن أن جميعَ الخلائق إذا سألوا وهُم فى مكان واحدٍ وزمان واحدٍ فأَعطَى كُلَّ انسان منهم مسألتَه لم ينقُصْه ذلك مَّما عنده إلا كما ينقصُ الخِياط ـــ وهى الابرة ـــ إذا غُمِس فى البحر .

وقوله ﴿ **لم ينقص مما عندى** ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه يـدُلُّ على أن عنده أمورًا موجودةً يُعطيهم منها ماسألوه اياه ، وعلى هذا فيقال لفظ «النقص» على حاله ، لأنَّ الأعطاءَ من الكثير وان كان

قليلا فلابُدَّ أن ينقصه شيئا مَّـا . ومن رواه «لم ينقص من ملكى» يُحمل على ما عنده كما فى هذا اللفظ . فـان قولـه «مماعنـدى» فيـه تخصيص ليس هو فى قوله «من ملكى» .

وقد يُقال المُعطَى أما أن يكون أعيانا قائمة بنفسها أو صفاتٍ قـائمـةً بغيرها ؛ فـأمـا الأعيـانُ فقـد تُنقَلُ من محلّ الى محلّ فيظهر النقص فى المحلّ الأول .

وأما الصفاتُ فلا تُنقلُ من محلّها وان وجد نظيرهـا فى محل آخر كما يــوجـــد نظير علم المُعلّم فى قلب المتعلم من غير زوال علم المعلم ، وكما يتكلم المتكلم بكلام المتكلم قبلـه من غير انتقـال كلام المتكلم الأول الى الثانى . وعلى هذا فالصفات لاتنقص مماعنـدَه شيئـا وهى من المسئول كالهَدى .

وقـد يجـاب عن هـذا بـأنـه هـو من الممكن فى بعض الصفـات أن لا يثبت مثلهـا فى المحـل الثـانى حتى تـزول عن الأول كاللـون الــذى يَنقُصُ وكالروائـح التى تعبـق بمكان وتـزول كما دعـا[1] النبى ﷺ على حُمىَّ المدينة أن تنقل الى مهيعة وهى الجحفة .

وهل مثل هذا الانتقال بانتقال عين العرض الأول أو بوجود مثله من غير انتقـال عينـه فيـه للنـاس قولان ؛ إذ منهم من يُجَوز انتقـال

---

(١) فقد روى أن جوّ المدينة لم يوافق طبائع المهـاجرين فمرض عـدد منهم فـدعـا النبى ﷺ : اللهم حَبّب الينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ ، وصحّحهـا ، وبـارك لنـا فى صاعها ومدّها ، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة » .
رواه البخـارى فى فضـائـل المـدينــة(٢/٢٢٥) وفى منــاقب الأنصــار(٤/٢٦٤) وفى المرضى(٧/١١) وفى الـدعـوات(٧/١٦٠) ومسلم فى الحـج(١/١٠٠٣رقم٤٨٠) ومـالـك فى الموطأ(٨٩٠-٨٩١) وأحمد فى «المسند»(٦/٥٦، ٢٦٠) .

الاعراض بل من يجوز أن تجعل الأعراض أعيانًا كما هو قول ضرار والنجَّار وأصحابها كبرغوث وحَفص الفرد . لكن ان قيل هو بوجود مثله من غير انتقال عينه فذلك يكون مع استحالة العرض الأول وفنائه فيعدم عن ذلك المحل ويوجد مثله فى المحل الثانى .

والقول الثانى أن لفظ النقص هنا كلفظ النقص فى حديث موسى والخضر الذى فى الصحيحين[٢] من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ وفيه أن الخضر قال لموسى لما وقع عصفور على قارب السفينة فنقر فى البحر فقال :

« ياموسى ! مانَقَصَ عِلْمِى وعِلْمُكَ مِن عِلمِ اللهِ إلا كَمَا نَقَصَ هذا العُصفورُ مِن هذا البَحرِ »

ومن المعلوم أن نفس علم الله القائم بنفسه لايزولُ منه شيءٌ بتعلم العِباد ، وانما المقصود أن نسبة علمى وعلمك الى علم الله كنسبة ماعَلِق بمنقار العصفور الى البحر ومن هذا الباب كون العلم يُوْرَث كقوله :

« العُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياء »[٣]

ومنه قوله :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾[٤]

---

(٢) أخرجه البخارى فى العلم(١/٣٨ـ٤٠) وفى أحاديث الأنبياء(٤/١٢٧ـ١٢٩) وفى التفسير(٥/٢٣٤ـ٢٣٥) ومسلم فى الفضائل(٢/١٨٤٧ـ١٨٥٠رقم١٧٠)
وأخرجه الترمذى فى التفسير(٥/٣٠٩ـ٣١٢رقم٣١٤٩) وابن جرير فى تفسيره(١٥/٢٧٨ـ٢٧٩) .

(٣) جزء من حديث أخرجه أبوداود فى العلم(٤/٥٧ـ٥٨رقم٣٦٤١) والترمذى فى العلم أيضا(٥/٤٨رقم٢٦٨٢) وابن ماجة فى المقدمة(١/٨١رقم٢٢٣) وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان»(رقم١٥٧٣) وانظر بقية التخريج فيه .

(٤) سورة النمل(٢٧/١٦) .

ومنه توريث الكتاب أيضا كقوله :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾[٥]

ومثل هذه العبارة من النقص ونحوه تستعمل فى هذا وان كان العلم الأول ثابتا كما قال سعيد بن المسيب لقتادة ــ وقدأقام عنده أسبوعا سأله فيه مسائل عظيمة حتى عجب من حفظه وقال : نَزَفتَنى ياأعمى[٦] .

وانزاف القليب[٧] ونحوه هو رفع ما فيه بحيث لايبقى فيه شيء . ومعلوم أن قتادة لوتعلّم جميع علم سعيد لم يَزُل علمُه من قلبه كما يزول الماء من القليب ، لكن قديقال : التعليم انما يكون بالكلام والكلام يحتاج الى حركة وغيرها مما يكون بالمحل ويزول عنه ولهذا يوصف بأنه يخرج من المتكلم كما قال تعالى :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَّقُوْلُوْنَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾[٨]

ويقال : قدأخرج العالم هذا الحديث ولم يخرج هذا ، فاذا كان تعليم العلم بالكلام المستلزم زوال بعض مايقوم بالمحل وهذا نزيفٌ وخروج ، كان كلام سعيد بن المسيب على حقيقته . ومضمونُه أنه فى تلك السبع الليالى من كثرة ماأجابه وكلَّمه ففارقه أمورٌ قامت به من حركات وأصوات ، بل ومن صفات قائمة بالنفس كان ذلك نزيفا .

---

(٥) سورة فاطر(٣٢/٣٥) .

(٦) ذكره الذهبى فى «السير»(٢٧١/٥) فى ترجمة قتادة .

(٧) راجع «لسان العرب» (نزف) .

(٨) سورة الكهف(٥/١٨) .

ومما يُقَوّى هذا المعنى أن الإنسان وان كان علمُه فى نفسه فليس هو أمرا لازما للنفس لزوم الألوان للمتلونات ، بل قد يذهل الإنسان عنه ويغفل ، وقد ينساه ثم يذكره فهو شيء يحضُر تارةً ويغيب أخرى : وإذا تكلم به الإنسان وعَلَّمه فقد تَكِلُّ النفس وتَعْيَ حتى لا يقوى على استحضاره إلا بعد مدة فتكون فى تلك الحال خالية عن كمال تحققه واستحضاره الذى يكون به العالم عالما بالفعل ، وان لم يكن نفس ما زال هو بعينه القائم فى نفس السائل والمستمع . ومن قال هذا يقول كون التعليم يرسخ العلم من وجه لا ينافى ماذكرناه . واذا كان مثل هذا النقص والنزيف معقولا فى علم العباد كان استعمال لفظ النقص فى علم الله بناء على اللغة المعتادة فى مثل ذلك ، وان كان هو سبحانه مُنزَّها عن اتصافه بضد العلم بوجه من الوجوه أو عن زوال علمه عنه . لكن فى قيام أفعال به وحركات نزاعٌ بين الناس بين المسلمين وغيرهم .

وتحقيق الأمر أن المراد «ماأخذ علمى وعلمك من علم الله» و«مانال علمى وعلمك من علم الله» و«وماأحاط علمى وعلمك من علم الله» كما قال :

﴿ وَلاَيُحِيْطُوْنَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَاشَاءَ ﴾[9]

إلا كما نقص أو أخذ أو نال هذا العصفور من هذا البحر أى نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا الى هذا ، وإن كان المشبَّه به جسما ينتقل من محلّ الى محلّ ، ويزول عن المحل الأول . وليس المشبه كذلك فان هذا الفرق هو فرق ظاهر يعلمه المستمع من غير التباس كما قال ﷺ :

« إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ والقَمَرَ »[10]

---

(٩) سورة البقرة٢٨/٢٥٥) .

(١٠) حديث مشهور أخرجه البخارى(١٣٨/١،١٤٣) ومسلم(١٦٣/١ـ١٦٦) و

فشَبَّه الرؤية بالرؤية ، وهى وان كانت متعلقة بالمرئىّ فى الرؤية المشبَّهة ، والرؤية المشبه بها لكن قدعلمَ المستمعون أن المرئىّ ليس مثل المرئى ؛ فكذلك هنا شبه النقص بالنقص ، وان كان كل من الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبَّه ليس مثل الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبه به .

ولهذا كُلُّ أحد يعلم أن المُعلّم لايزول علمه بالتعليم ، بل يشبَهونه بضوء السراج الذى يحدث يقتبس منه كُلُّ أحد ، ويأخذون ماشاءوا من الشهب وهو باقٍ بحاله ، وهذا تمثيل مطابقٌ ، فان المستوقد من السراج يحدث الله فى فتيلته أو وقوده نارا من جنس تلك النار ، وان كان قديقال انها تستحيل عن ذلك الهواء مع أن النار الأولى باقية . كذلك المتعلم يجعل فى قلبه مثل علم المُعلّم مع بقاء علم المعلم .

ولهذا قال على رضىالله عنه : العلم يزكو على العمل-أو قال على التعليم-والمال ينقصه النفقة .

وعلى هذا فيقال فى حديث أبىذر ان قوله « مماعندى » وقوله « من ملكى » هو من هذا الباب وحينئذ فله وجهان :

أحدهما أن يكون ماأعطاهم خارجا عن مسمى ملكه ومسمى ماعنده كما أن علم الله لايدخل فيه نفس علم موسى والخضر .

والثانى أن يقال بل لفظ الملك وماعنده أن يتناول كل شىء وماأعطاهم فهو جزء من ملكه ومماعنده ولكن نسبته الى الجملة هذه النسبة الحقيرة .

ومما يحقق هذا القول الثانى أن الترمذى روى هذا الحديث من طريق عبدالرحمن بن غنم عن أبىذر مرفوعا فيه :

« لـو أنَّ أَوَّلَكُم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم ورَطْبَكم ويَـابسَكم سألونى حتى تنتهى مسألـةُ كُلّ واحـد منهم ، فـأعطيتهم ماسألونى مانقص ذلك مماعندى إلاَّ كمغرز إبرةٍ لوغَمسَها أحـدُكم فى البحر ، وذلـك انّى جَـوادٌ ، مـاجـدٌ ، واجـدٌ ، عطائى كلامٌ ، وعَـذابى كلامٌ ، انمـا أمرى لشىء إذا أردتُـه أن أقول له كُنْ فَيَكُون »

فذكر سبحانه أن عطاءه كلام ، وعذابه كلام يدل على أنه هو أراد بقولـه « من ملكى » و« ممـاعنـدى » أى من مقـدورى فيكون هـذا فى القدرة كحديث الخضر فى العلم والله أعلم .

ويـؤيـد ذلـك أن فى اللفـظ الآخر الـذى فى نسخـة أبى مسهر « لم ينقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص البحر » وهذا قد يقال فيـه أنه استثناء منقطع أى لم ينقص من ملكى شيئا لكن يكون حاله حـال هذه النسبة وقد يقال بل هو تام والمعنى على ماسبق .

* * * * *

فصـــل

ثم ختمه بتحقيق مابينه فيه من عدله واحسانه فقال :

« يَـاعِبَـادى ! انَّما هى أعمـالُكم أُحصِيهـا لكُم ، ثُمَّ أُوَفِّيكم إيَّاها ، فمَنْ وَجَـدَ خيرًا فليَحْمَـدِ اللهَ ومَن وجـد غير ذلـك فلا يلومَنَّ إلا نفسَه »

فبَيَّنَ أنه محسن الى عباده فى الجزاء على أعمالهم الصالحة احسانا يستحقُّ به الحمدَ لأنه هو المنعم بالأمر بها والإرشاد اليها والإعانة عليها ثم احصائها ثم توفية جزائها ، فكُلُّ ذلـك فضلٌ منـه واحسـان إذ كُلُّ نعمة منه فضلٌ ، وكُلُّ نقمة منه عـدل ، وهو وإن كان قـدكتَبَ على نفسه الرحمة ، وكان حقًّا عليه نَصرُ المؤمنين ــ كما تقدم بيانـه ــ فليس وجوبُ ذلـك كوجوب حقوق النـاس بعضهم على بعض الـذى يكـون عـدلا لافضـلا ، لأنَّ ذلـك انمـايكـون لكـون بعض النـاس أحسن الى البعض ، فاستحقَّ المعاوضةَ ، وكان احسـانـه اليـه بقـدرة المُحسِن دون المحسَن اليه . ولهذا لم يكن المتعاوضـان ليُخَصّ أحـدهمـا بـالتفضيل على الآخر لتكافئهما ، وهـو قـدبَيَّنَ فى الحـديث أن العبـادَ لم يبلُغُـوا ضُرّه فيَضُرُّوه ، ولن يبلُغُوا نفعَـه فيَنْفَعوه ، فـامتنع حينئـذ أن يكون لأحـد من جهة نفسه عليه حقٌّ بل هو الذى أحقَّ الحقَّ على نفسه بكلماتـه .

فهو المحسن بالإحسان ، وباحقاقه وكتابته على نفسه فهو فى كتابة الرحمة على نفسه واحقاقه نصرَ عباده المؤمنين ونحو ذلك محسنٌ احسانا مع احسان ، فليتدبَّر اللبيب هذه التفاصيل التى يتبيَّنُ بها فصل الخطاب فى هذه المواضع التى عظُم فيها الاضطراب : فمِن بَينِ موجبٍ على ربه بالمنع أن يكون محسنا متفضّلا ، ومن بين مُسوٍّ بينَ عدله واحسانه وماتنزَّه عنه من الظلم والعدوان ؛ وجاعل الجميع نوعا وَاحدا وكل ذلك حَيدٌ عن سنن الصراط المستقيم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

وكما بَيَّنَ أنه محسن فى الحسنات مُتِمٌّ احسانه باحصائها ، والجزاء عليها ، بَيَّنَ أنه عادلٌ فى الجزاء على السيئات فقال :

« ومن وجد غير ذلك فلايلومَنَّ إلا نفسه »

كماتقدم بيانه فى مثل قوله :

﴿ وَمَاظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ ﴾[1]

وعلى هذا الأصل استقرَّت الشريعة الموافقة لفطرة الله التى فطَر الناس عليها كما فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى[2] عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال :

« سيد الإستغفار أن يقول العبد : اللَّهُمَّ أنتَ رَبِّى لاإله إلا أنتَ خَلَقْتَنِى ، وأنا عَبْدُك ، وأنا عَلى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ مااستَطَعْتُ ، أعوذ بكَ مِن شَرِّ ماصَنَعْتُ ، أَبُوءُ لكَ

---

(١) سورة هود(١١/١٠١) .

(٢) فى الدعوات من «صحيحه»(١٤٥/٧) وفى «الأدب المفرد»(١٦٢رقم٦٢٠) ورواه البيهقى فى «شعب الإيمان»(٥٦٥/٢رقم٦٥٨) وقداستوفينا تخريجه فيه فراجعه .

بنعمتِكَ عَلَىَّ ، وأَبُوءُ بذنبى ، فَاغْفِرْلى فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ »

ففى قوله « أبوءُ لك بنعمتك علىَّ » اعترافٌ بنعمته عليه فى الحسنات وغيرها ، وقوله « وأبوء بذنبى » اعترافٌ منه بأنه مُذنبٌ ، ظالمٌ لنفسه . وبهذا يصير العبدُ شكورًا لربّه ، مستغفرًا لذنبه فيستوجب مزيدَ الخير وغفرانَ الشر من الشَّكُور الغَفُور الذى يَشكُرُ اليسيرَ من العمل ، ويغفرُ الكثيرَ من الزلل .

وهنا انقسمَ الناسُ ثلاثة أقسام فى اضافة الحسنات والسيئات التى هى الطاعات والمعاصى الى ربهم والى نفوسهم : فشرُّهم الذى إذا أساءَ أضاف ذلك الى القدر ، واعتذر بأن القدر سبقَ بذلك ، وأنه لا خروجَ له عن القدر ، فركبَ الحجَّةَ على ربه فى ظلمه لنفسه ؛ وان أحسنَ أضاف ذلك الى نفسه ونَسِىَ نعمة الله عليه فى تيسيره لليسرى . وهذا ليس مذهب طائفة من بنى آدم ولكنه حالُ شرار الجاهلين الظالمين الذين لا حفظُوا حدودَ الأمر والنهى ، ولا شهدوا حقيقة القضاء والقدر . كما قال فيهم الشيخ أبوالفرج بن الجوزى : أنت عند الطاعة قدرىٌّ ، وعند المعصية جبرىٌّ ؛ أىَّ مذهب وافقَ هواك تمذهبتَ به .

وخير الأقسام ـــ وهو القسم المشروع وهو الحقُّ الذى جاءت به الشريعة ـــ : أنه إذا أحسن شكرَ نعمةَ الله عليه وحمدَه إذ أنعمَ عليه بان جَعلَه مُحسنا ولم يجعلْه مسيئا ، فإنَّه فقيرٌ محتاجٌ فى ذاته وصفاته وجميع حركاته وسكناته الى ربِّه ، ولا حول ولا قوة إلا به ، فلو لم يَهدِه لم يهتد ، كما قال أهل الجنة :

﴿ ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِىْ هَدَانَا لِهَذَا وَمَاكُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْجَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾(٣)

وإذا أساء اعترفَ بذنبه واستغفرَ رَبَّه وتاب منه ، وكان كأبيه آدم الذى : قَالَ

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾[4]

ولم يكن كإبليس الذى قال :

﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِيْنَ ﴾[5]

ولم يحتجّ بالقدر على ترك مأمورٍ ، ولافعل محظور مع ايمانه بالقدر خيره وشره ، وأنَّ الله خالقُ كل شىء ورَبُّه ومليكُه ، وأنه ماشاء الله كانَ . وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يَهدى مَن يشاءُ ويُضلُّ من يشاء ونحو ذلك ، وهؤلاء هم الذين أطاعوا الله فى قوله فى هذا الحديث الصحيح :

« فَمَن وَجَدَ خَيرًا فليَحْمَد اللهَ ، ومَن وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه »

ولكن بسط ذلك وتحقيق نسبة الذنب الى النفس مع العلم بان الله خالق أفعال العباد فيه أسرار ليس هذا موضعها .

ومع هذا فقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُوْلُوْا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ

= (٣) سورة الأعراف(٤٣/٧) .

(٤) نفس السورة(٢٣/٧) .

(٥) سورة الحجر(٣٩/١٥-٤٠) وفى الفتاوى والمنيرية «فبماأغويتنى» خطأ . ومثل هذه الأخطاء فى نقل الآيات القرآنية كثيرة فى مجموع الفتاوى المطبوع .

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[٦]

ليس المراد بالحسنات والسيئات فى هذه الآية الطاعة والمعاصى كما يظنُّه كثير من الناس حتى يُحرّف بعضهم القرآن ويقرأ « **فَمَنْ نَفْسُكَ** »[٧] ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة ، وحتى يضمر[٨] بعضهم القول على وجه الإنكار له وهو قول الله الحق فيجعل قول الله الصدق الذى يُحمد ويُرضى قولا للكفار يُكذب به ويُذَمّ ويسخط بالاضمار الباطل الذى يَدّعيه من غير أن يكون فى السياق مايدل عليه .

ثم ان من جهل هؤلاء ظنهم أنّ فى هذه الآية حجة للقدرية واحتجاج بعض القدرية بها . وذلك أنه لاخلاف بين الناس فى أن الطاعات والمعاصى سواء من جهة القدرية . فمن قال ان العبد هو المُوجدُ لفعله دون الله أو هو الخالق لفعله ، وأن الله لم يخلق أفعال العباد فلافرق عنده بين الطاعة والمعصية . ومن أثبت خلق الأفعال ، وأثبتَ الجبر أو نفاه أو أمسك عن نفيه واثباته مطلقا ، وفصل المعنى أو لم يفصله فلافرق عندهٔ بين الطاعة والمعصية ؛ فتبيَّن أن ادخال هذه الآية فى القدر فى غاية الجهالة .

---

(٦) سورة النساء(٤/٧٨-٧٩) .

(٧) وانظر «تفسير ابن الجوزى»(٢/١٣٨) والقرطبى(٥/٢٨٥) .

(٨) فذكر ابن الجوزى ان ابن الأنبارى قال : المعنى : أفمن نفسك ؟ فأضمرت الف الاستفهام .

وذلك أن « الحسنات والسيئات » فى الآية المراد به المسَارّ والمضَارّ دون الطاعات والمعاصى كما فى قوله تعالى :

﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٩]

وهو الشر والخير فى قوله :

﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[١٠]

وكذلك قوله :

﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾[١١]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى ﴾[١٢]

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِىٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ

---

(٩) سورة الأعراف(١٦٨/٧) .

(١٠) سورة الأنبياء(٣٥/٢١) .

(١١) سورة آل عمران(١٢٠/٣) .

(١٢) هذا مثال آخر للتخليط الذى يوجد فى مجموع الفتاوى المطبوع ، ولم يتنبه لها الذين اقتبسوا منه ، وجرّدوا منه رسائل شيخ الإسلام للطبع .
فهناك آيتان فى هذا المعنى : الأول قوله تعالى :
﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسّته ليقولن ذهب السيئات عنى ﴾(سورة هود١١/١٠)
والأخرى : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ﴾(سورة فصلت٤١/٥٠) .

وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُوْنَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَّقَالُوْا قَدْمَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَّهُمْ لاَيَشْعُرُوْنَ ﴾(١٣)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوْا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَّطَّيَّرُوْا بِمُوْسَى وَمَنْ مَّعَهُ ﴾(١٤)

فهذه حال فرعون وملائه مع موسى ومن معه كحال الكفار والمنافقين والظالمين مع محمد وأصحابه :

إذا أصابهم نعمة وخير قالوا لنا هذه أو قالوا هذه من عند الله وان أصابهم عذاب وشر تطيروا بالنبى والمؤمنين وقالوا هذه بذنوبهم .

وانما هو بذنوب أنفسهم لابذنوب المؤمنين . وهو سبحانه ذكر هذا فى بيان حال الناكلين عن الجهاد الذين يلومون المؤمنين على الجهاد فإذا أصابهم نصر ونحوه قالوا هذا من عند الله وان أصابتهم محنةٌ قالوا : هذه من عند هذا الذى جاءنا بالأمر والنهى والجهاد قال الله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا خُذُوْا حِذْرَكُمْ ﴾(١٥) الى قوله ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ الى قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ قِيْلَ لَهُمْ كُفُّوْا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيْمُوْا الصَّلاَةَ وَآتُوْا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ

---

(١٣) سورة الأعراف(٧/٩٤ـ٩٥) .

(١٤) نفس السورة(٧/١٣١) وفى الفتاوى والمنيرية «واذا جاءتهم» .

(١٥) سورة النساء(٤/٧١ـ٧٩) .

كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوْا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ الى قوله ﴿ أَيْنَ مَا تَكُوْنُوْا يُدْرِكْكُّمُ الْمَوْتُ ﴾

﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أى هؤلاء المذمومين ﴿ يَّقُوْلُوْا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَّقُوْلُوْا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أى بسبب أمرك ونهيك قال الله تعالى ﴿ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَيَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ حَدِيْثًا مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ من نعمة ﴿ فَمِنَ اللهِ وَمَاأَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَّفْسِكَ ﴾ أى فبذنبك .

كما قال :

﴿ وَمَاأَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ ﴾[١٦]

وقال :

﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَاقَدَّمَتْ أَيْدِيْهِمْ ﴾[١٧]

وأما القسم الثالث فى هذا الباب فهم قوم لَبَسوا الحق بالباطل وهم بين أهل الإيمان أهل الخير وبين شرار الناس وهم الخائضون فى القدر بالباطل فقوم يرون أنهم هم الذين يهدون أنفسهم ويُضلّونها ويوجبون لها فعل الطاعة وفعل المعصية بغير إعانة منه وتوفيق للطاعة ، ولا خذلان منه فى المعصية . وقوم لايثبتون لأنفسهم فعلا ولاقدرة ولاأمرا . ثم مِن هؤلاء مَن يبخل عن الأمر والنهى فيكون أكفر

---

(١٦) سورة الشورى(٣٠/٤٢)

(١٧) أيضا(٤٨/٤٢) .

الخلق . وهم فى احتجاجهم بالقدر متناقضون إذ لابُدَّ من فعل يُحبّونه ، وفعل يبغضونه ولابُدَّ لهم ولكل أحد من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين فاذا جعلوا الحسنات والسيئات سواسية لم يمكنهم أن يذمُّوا أحدا ، ولا يدفعوا ظالما ولا يقابلوا مسيئا ، وان يبيحوا للناس من أنفسهم كُلَّ مايشتهيه مشتهٍ ونحو ذلك من الأمور التى لايعيش عليها بنوآدم إذ هم مُضطرّون الى شرع فيه أمر ونهى أعظم من اضطرارهم الى الأكل واللباس .

وهذا باب واسع لشرحه موضع غير هذا وانما نبهنا على ما فى الحديث من الكلمات الجامعة والقواعد النافعة بنكت مختصرة تُنبّه الفاضل على ما فى الحقائق من الجوامع والفوارق التى تفصل بين الحق والباطل فى هذه المضايق بحسب مااحتملته أوراقُ السائل .

والله ينفعنا وسائر اخواننا المؤمنين بماعَلِمناه ، ويُعلّمنا ماينفعنا ، ويزيدنا علمًا ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ، ولاملجأً منه إلا اليه . له النعمة وله الفضل ، وله الثناءُ الحسن . واستغفر الله العظيم لى ولجميع اخواننا المؤمنين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما .





فهرس المباحث

من مطبوعات الدارالسلفية

١ ــ « الجامع لشعب الإيمان »
لشيــخ السنـــة الإمـــام أبى‌بكر أحمـــد بن الحسين البيهقى (م٤٥٨هـ)

موسوعة حديثية لايستغنى عنها باحث ولاطالب ، تتضمن الأحاديث النبوية وآثار السلف التى تلقى ضوءًا على « شعب‌الإيمان » صدر منها أربعة أجزاء . والخامس تحت الطبع .

٢ ــ فهارس « المصنف للأحاديث والآثار »
للحافظ أبى‌بكر بن أبى‌شيبة العبسى الكوفى

فى مجلدين تشتمل على فهرس أبجدى للأحاديث والآثار ، والأعــلام الرواة الـــواردة فى « المصنف » لابن أبى‌شيبــــة تصـــدر قريبـــا .

٣ ــ فهرس الأحاديث والآثار الواردة فى « المصنف »
للمحدث عبدالرزاق بن همام الصنعانى

يصـــدر قريبـــا .